عبد الكريم العامري

غزو – رواية

عبد الكريم العامري

غـزو

رواية

(1)

لم تكن الثكنة التي نزلنا فيها ليلة الخامس من كانون الأول عام 2002 سوى منطقة عارية من الأشجار، تقع في الطرف الغربي البعيد من مدينة السماوة، صحراء مترامية الأطراف، أسس بعض الجنود فيها ممراً من طابوق لا اعرف من اين جاءوا به.. ربما هناك ما يدعو للتساؤل عن مصدر الطابوق، أقوام أرست أسس مدينة غارت في الرمل، أم حضارة لم يذكرها أحد في كتب التأريخ، قطع متناثرة من طابوق متهرئ، بالكاد تستطيع ان تلمس بعضه ليذوب بين أصابعك.. وصلنا ليلاً، في شتاء ازدادت فيه موجة البرد.. ورغم اننا نخفي وجوهنا تحت (كليتة) عسكرية إلا إن الهواء ما فتئ ينـدس من

الثقوب الصغيرة.. ساعة اليد التي كنت أضعها في يدي اليمنى تذكرتها في اللحظة التي سألني فيها عريف قاسم عن الوقت.. لم تكن في يدي لحظتها وتذكرت إني وضعتها قرب (حنفية) الماء في السرية الثالثة لكتيبة الهندسة العسكرية قبل أن نؤمر بالرحيل من السرية.. شعرت بحزن عميق وأنا أفقدها، كيف لم يتسن لي الوقت لوضعها في يدي بعدما سمعنا صوت (بوق) الجندي عبد القادر وهو يدعونا للتجمع.. لم أبدل تلك الساعة طيلة خمس سنين مضت، خلعتها من يد والدي قبل ان يسجى على الدكة الاسفلتية في مغتسل الموتى.. آخر ما بقي لي من عذابات الزمن المتعب.. ساعة من نوع سور سويسرية الصنع، بأرقام لاتينية وأخرى إنكليزية، وسير معدني فضي اخضرّت بعض مفاصله.. كان والدي يقول عنها أنها ضد الماء، لهذا فهو يغسل يديه دون ان يخلعها.. لكني لم أطبق ما كان يقوم به لخشيتي أن ينفذ الماء الى داخلها.. فقد كنت اخلعها من يدي ومن ثم أعيدها.. هكذا منذ خمس سنين، تعيش معي لحظات الكآبة.. كانت اضبط ساعة في السرية.. لم انس والدي وهو يميزها عن كل الساعات فكان يقول عنها هي اضبط من ساعة سورين(*) تلك التي كانت في يوم ما تدل أهل البصرة على الوقت، بينما كنا نسميها نحن ساعة (غرينتش) فهي مضبوطة (ضبط العقال) كما كان يردد.. وكانت جاراتنا يأتين الى بيتنا ليسألنه عن الوقت ليهيأن الطعام لبعولتهن بعد عودتهم من العمل من المخازن القريبة من دور ميناء الفاو التي تسمى المعتقل يوم كانت معتقلاً للوطنيين أبان الحكم الملكي حيث طورت المنطقة وبنيت في

عهد الزعيم عبد الكريم قاسم دور أخرى في ذات المكان سميت دور 14 تموز تيمناً بالثورة التي اطاحت بالنظام الملكي..

بفقدان الساعة سور السويسرية الصنع أحسست ان وقتاً عصيباً بانتظاري، وان زمناً آخر سيهدّ ما بقي من قوتي.. الساعة تلك وجدتها فيما بعد بين اغراضي مع ورقة صغيرة كتبها احد الجنود الذين بقوا في الخلفيات بخط وجدت صعوبة بالغة في قراءته قال فيها: "لا تنسى ساعتك، هي زمنك فاحرص عليه، اعرف كم هي عزيزة عليك، بحثت عنك ولم اجدك ووضعتها في حقيبتك الاثرية!).

في ذلك المكان المقفر نصبنا خيمتين متقابلتين، في كل خيمة كان هناك خمسة عشر جندياً.. لكننا بلغنا في اليوم التالي أن نهدّ الخيمتين لنبني موضعاً شاقولياً.. نغطيه بقطع الخيام.. كان العريف قاسم يبدو كآخر فارس خرج من حرب الثمان سنين التي أكلت الأخضر واليابس والحرب التي تلتها ليدخل في حرب ثالثة.. يحمل جرحين غائرين في كتفه وعجيزته.. في فترات الاستراحة كنا نسأله مازحين: لماذا اختارت الشظايا عجيزتك يا عريف؟ يتأمل وجوهنا ويرد واثقاً: ذلك لأنها دائماً تختار المكان الفعّال!!

– وهل عجيزتك فعالة الى هذه الدرجة؟

– لو لم تكن كذلك لما تطوعت في الجيش...!

يقولها ضاحكاً ونادباً حظه.. فقاسم ابن الخمسين عاماً، بشعر رأسه المجعّد الأشيب، وعينيه الذابلتين، ويديه الضعيفتين، لم يشعرنا يوماً اننا أمام عريف معقد كالعرفاء الذين التقيناهم في مراكز التدريب ممن نسميهم (الجولة) وهي

تسمية تطلق بقصد التندر والسخرية.. فهو يبرر بساطته في انه لم يبق له في الدنيا ما يمكن ان يجعله مارداً.. الزوجة التي ماتت بإشعاعات الحرب، والإبن الذي ضاع في غياهب السجون هو وعدد من زملائه في المدرسة حين وشى بهم مدرس التاريخ بأنهم كتبوا في السبورة ما يسيء للحكومة الأمر الذي جعل رجال الأمن يقتادون طلاب صف كامل الى جهة مجهولة ولم يسمع عنهم شيئاً منذ ذلك اليوم.. اما مدرس التأريخ فقد عيّن مديراً للمدرسة بعدما فصل المدير لتستره عن معلومات خطيرة تتعلق بأمن الدولة!! لهذا فعريف قاسم كان يائساً من حياة خرج منها بخفي حنين.. ولأننا نعرف قصته تلك فقد أحببناه وتعاطفنا معه..

لم يكن العريف قاسم يحب التحدث عما مضى من حياته لكنه احياناً يجبر منا حين نجلس متعبين في الخيمة المتهرئة..

ذات يوم سأله الجندي عبود: لماذا لم تتزوج يا عريفي؟ أشعل سيجارة من نوع ميركوري وراح ينفث الدخان في الفضاء الضيق.. أجاب بعد تأمل وانتظار منا:

- لم تعطني الحرب فرصة لانتقاء واحدة..
- أهي الحرب فقط..؟

قلتها له ضاحكاً لكنني كمن أشعل ناراً في حطب، تأوه العريف قاسم وقال:

- كنت أحب زوجتي، أحبها جداً، حتى يوم اغتالتها اشعاعات الضربات الجوية، وتسربت في جسدها النيء ليعجن السرطان لحمها

وعظامها، لم أفكر لحظة اني سأتركها، اوهي تتركني، كنا نرسم مستقبلاً لولدنا الذي لم نره منذ ذلك اليوم المشؤوم..

صمت لحظة تاركاً غيمة من الدخان تحلّق حول رؤوسنا وتندس في قماش الخيمة... وأردف قائلاً:

- لعن الله الظلام، أعمى البصائر، وادخل الخوف والرعب الى النفوس..

تيقنت في تلك اللحظة أن العريف قاسم يتذكر ايام اقتياده الى منظومة الاستخبارات العسكرية بعد إلقاء القبض على ابنه، لكنه أطلق سراحه بعدما وردت برقية تزكية من آمريه تؤكد حسن سيرته وسلوكه تزامنت مع صدور قرار حكومي أعفى جميع الموقوفين وإطلق سراحهم على الفور.. وهكذا أعيد الى الوحدة العسكرية مع كتاب يشير الى تشديد الرقابة عليه.

(2)

الصحراء تبدو مثل مرآة صافية، زادها الصقيع الذي غطى خيمتنا صفاءاً، لم نخلع بساطيلنا أو أية قطعة من ملابسنا الثقيلة، أسناننا تصطك من فرط البرد وأنوفنا أحمرّت..، تذكرت الجندي رامي وكان مسيحياً، شاركني ذات الموضع في سربيل زهاب.. يحمرّ أنفه وشحمتا أذنيه كلما هبت موجة هواء باردة، كان يصاب بهستيريا كلما يبدأ الأيرانيون بقصف مواضعنا، يصرخ في وجوهنا: ما ذنبي أنا اذ أموت في هذا المكان العفن، أنتم مسلمون تحاربون بعضكم بعضاً فما شأني أنا؟!

- الا يهمك وطنك؟

يصمت لحظة ثم يقول:

- لم تقتلنا الا الشعارات الفارغة.. لماذا لا نعيش بسلام ونترك تلك الشعارات؟

ولأني كنت أخشى عليه من زمر الاستخبارات العسكرية الذين يحشرون انوفهم في كل صغيرة وكبيرة أحاول أن أنسّيه موضوع الحرب وأغني له أغنية شعبية عراقية يحبها..

(لا عالبال ولا عالخاطر

بغير وداع تريد تسافر!!)

مرة قال لي: الحب والحرب يجتمعان في قلبي!

– كيف؟

– كلما سمعت هذه الأغنية تذكرت رانيا بثوبها الطفولي، وشعرها الذهبي، وهي تحمل كتبها المدرسية.. كنت أنتظرها كل يوم قرب موقف الحافلة.. لم تهتم بي بادئ الأمر لكن الصدفة جمعتنا ذات صباح في عيد الفصح، في كنيسة ماريوسف حيث كانت في الصف القريب مني.. أشعلنا معاً شمعة العيد، رتلنا معا كلام الرب.. وهكذا تسربت الى داخلينا محبة الرب، محبتنا.. ومن يومها صرنا نلتقي، نتحدث عن الحياة والمستقبل الذي ينتظرنا..

لم يكمل رامي حلمه، فقد وجدناه في اليوم التالي، بعد موجة قصف شديدة، مرمياً في موضع قريب راسماً ابتسامة لم أنسها ما حييت.. مات رامي وكأني برانيا أراها توقد شمعة القيامة في ذات الكنيسة التي جمعتهما.

في تلك الليلة الباردة، طلب الضابط لقمان من العريف قاسم أن يقسمنا الى ست مجاميع، كل مجموعة تقوم بعملها في زرع جزء من حقل الألغام.. كانت مجموعة الألغام قد وضعت في صناديق أقفلت بأحكام.. ألغام ضد الأشخاص وأخرى ضد الدبابات.. وكانت الأوامر التي تلقيناها تشير الى أن حقل الألغام الذي سنزرعه في هذه المنطقة البعيدة عن المدن والناس سيؤدي الى عرقلة تقدم القوات الأمريكية اذا جازفت واخترقت الحدود العراقية.. سيارة من نوع ايفا مليئة بمواد غذائية مجففة وجهاز لاسلكي واحد هو كل ما يربطنا بالعالم البعيد.

في صباح اليوم التالي، أشعل العريف قاسم ناراً في موقد حفره في الأرض الرملية بعد ان كسا حافاته بقطع صغيرة من بقايا طابوق وطلب من الملازم لقمان أن يتدفأ حتى ينتهي الجنود من تناول فطورهم.. بينما بقيت أحدّق في وجهيهما الذين لفعتهما خطوب السنوات الماضية، لم يكن العريف قاسم كعادته، او هكذا شعرت به في اللحظة التي التفت بها نحوه.. كان كئيباً، ينبش بالنار المتأججة بخشبة كسرها من صندوق حفظ الألغام وتآكلت بعض الحروف المكتوبة باللغة الروسية.. ربما استطيع ان أخمّن ما يدور بينهما من حديث.. العريف قاسم يتحدث والملازم لقمان يصغي له.. كانا منشغلين بما ستؤول اليه الأيام القادمة على ما يبدو، حيث سبق وان سمعت من الملازم لقمان كلمة كان يلوكها بلسانه وهو يتحدث الى العريف قاسم في ان الحرب القادمة ستكون أشد من سابقتيها..

لم يكن الملازم لقمان في حرب الخليج الأولى قد تخرج من دورة الهندسة العسكرية، كان حينها يتلقى دروسه في معسكر الرشيد، ونقل بعدها الى خان بني سعد حيث كتيبة تدريب الهندسة العسكرية تعلم فيها طريقة زرع الألغام ومصائد المغفلين والطرود والرسائل الملغومة ومعالجة القنابل غير المنفلقة.. قال لنا ذلك ذات يوم انه استطاع ان يوقف عمل صاعق لصاروخ طائرة بواسطة جهاز التجميد لثنائي أوكسيد الكاربون! وحصل على كتاب شكر من رئيس اركان الجيش.. بعدها حصل على رتبة نائب ضابط حربي والذي يسميه العريف قاسم (موس) في اشارة الى القطعة المعدنية الذهبية المستطيلة الشبيهة بموس الحلاقة والتي يحملها على كتفه..

أشار الملازم لقمان الى عريفنا أن يطلق صافرته ايذاناً ببدء العمل.. تجمع الجنود، في ثلاثة صفوف وبدأوا بفتح صناديق الألغام وصاح الملازم لقمان بنواب العرفاء أن لا ينسوا مسامير الأمان الخاصة بالألغام بعد تسليحها وتهيأتها للعمل..

- عملنا لا يحتمل الخطأ! كل لغم بمسمار أمان، وليكن بين كل جندي وآخر مسافة عشرة أقدام..

قالها الملازم آمراً.. بينما أشار العريف قاسم الى عدد من الجنود أن يبدأوا بربط الأشرطة البيضاء بين شق وآخر..

كنت قد كلفت بواجب تسليح مجموعة الألغام ضمن الشق المخصص لزمرتنا، والتسليح يعني أن أسحب مسمار الأمان من اللغم لأجعله متهيئاً للإنقضاض على من يدوس عليه.. رغم سطوع الشمس الا ان أبدان

الألغام ما زالت باردة.. كيف يمكن ان يكون اللغم الذي يخفي في جوفه النار والشظايا باردا هكذا؟ هذا ما دار في رأسي وأنا امسك ببدن لغم ضد الأشخاص انتصبت شوكاته الثلاث فوق صاعقه وبانت حراشفه مثل تمساح مخيف! كنت انظر الى الجنود وهم يعملون بصمت ويزرعون الحقل بأدوات الموت، صمت مخيف، تذكرت عندها بستان جدي، في جنوب المدينة، الذي زرع فيه شجرة سدر وحناء وكلما تحدث معنا يشير الى تلك الأوراق الخضراء قائلاً: (تلك أشجار الجنة).. أما ونحن نزرع الموت في هذا الحقل لا بد ان جدي لو كان موجوداً هنا لأشار نحوها قائلاً: (تلك أشجار جهنم!)

في أيام السلم وهي قليلة جداً، قلما تجد أناساً يزرعون الموت في الطرقات مثلما نفعل نحن في هذه الصحراء المخيفة.. للآن تراودني صورة الجندي الأول باسل والذي كان يتفنن بوضع الشريط الأسود في أعلى ذراعه اليسرى حينما أنفلق قريباً منه لغم انتشل منه بصره بعدما قطع ساقه اليمنى.. زرته في إجازتي الدورية، وجلسنا في بستان بيته الصغير بمحاذاة صف من شجر الورد الجوري.. قال لي:

- أتصدق أني لم اشعر بجمال الورد إلا بعد ان فقدت بصري.. هل تريدني أن أصفه لك..؟

وراح يصف لي لون وعطر الورد وصفاً لم استطع ان أقارنه بما أراه أمامي.. وحين فرغ من كلامه قال:

- أتريدني أن أصف لك اللغم الذي أقعدني..؟

قلت له:

- دعك منه، لا أريدك ان تبدد صورة الجمال الذي رسمته لي بصورة شوهاء!

لم يكن الجندي الأول باسل أول الضحايا بل كان هناك كثيرون وربما سأكون واحداً منهم.. لا أدري اين هو الآن، لكن جيرانه قالوا لي أنه (ترك الجمل بما حمل) وغادر البيت، مع امرأة وطفل اسماه سلام، حالماً بزمن أكثر اماناً وسلاماً.

زرعنا في ذلك اليوم حقلاً للالغام تمتد مساحته الى أكثر من ثلاثة كيلومترات، بأنواع مختلفة من الزرع.. وكانت الخرائط تغلف وتوضع في اسطوانات معدنية وتخزن في صناديق خاصة في خيمة الملازم لقمان مع أعداد مسامير الأمان التي انتشلناها من ابدان الألغام المزروعة.. الأوامر تقول كل لغم بمسمار أمان، والمسمار هذا قد يكون في يوم ما مفتاح لزمن صاف أو لزمن مغبر..

رفعنا الاشرطة البيضاء.. وانسحبنا بهدوء.. تاركين خلفنا مئات الألغام بانتظار المارينز الذين أخبرنا ضابط التوجيه السياسي يوم كنا في الكتيبة أنهم سيهربون حال انفلاق أول لغم!

كل شيء يمضي بهدوء وسط هذه الصحراء القاحلة باستثناء الكوابيس التي كانت تراودني وتبدد عني لحظات النوم القليلة.

(3)

الراديو الوحيد الذي بحوزة الجندي راسم بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة.. رغم انه بين الفينة والأخرى يعض بأسنانه البطاريتين بغية بث جزء من الحياة فيهما.. وبدأت إذاعة بغداد تبتعد عنا رويداً.. رويداً.. وبالكاد نسمع المذيع وهو يعلن آخر الأخبار.. نستمع الى تصريحات وزير الاعلام العراقي الصحاف وهو يشد الهمم يسخر من حرب قادمة..لم تسمح لنا الأوامر بالاستماع الى أية اذاعة اخرى عدا اذاعة بغداد.. لكننا في ساعات متأخرة من الليل وحين يغفو الجميع كنا نستمع ونحن في الواجب الى إذاعة وادي الرافدين، والعراق الحر، وسوا.. ومن أجل ذلك رتبت نوبتي ان تكون مع راسم.. لم يكن واجبنا سوى حماية الطاقم من المتسللين او الذئاب الجائعة.. وما عدا ذلك فلا واجب لنا..

طائرات بعيدة تحلق في السماء.. لا نسمع الا أزيزها.. قال راسم:

- تلك طائرات أمريكية.. من قوات التحالف..

قلت له:

- كيف عرفت..؟ ربما تكون طائراتنا أو طائرات صديقة..

قال بعد ان التفت يمينا وشمالا:

- لم يعد لنا طائرات ولا أصدقاء..

صمت لحظة ثم أردف قائلاً بلهجة أهل الجنوب:

- يظهر أن الحرب القادمة ستكون على (تك كول)!

ضحكت، يقينا أن راسم يقصد ان (تك كول) سيكون علينا.. وان عشرة أهداف قليلة بحق دولة تحاول ان تتصدى للعالم بأسره في حرب لا يعرف مداها..

في اليوم التالي كان موضعنا مليئاً بقصاصات احتوت على جمل باللغتين العربية والانكليزية، تدعو الناس الى التمرد! وعدم مقاومة قوات التحالف التي جاءت من أجل تحرير العراق... كانت تلك منشورات امتلأت بها المدن العراقية قيل لي بعد سنوات ان بعض الحزبيين أقاموا احتفالات لتجميعها ومن ثم إحراقها لتحشيد الهمم وبث ذلك تلفزيون الشباب وبغداد والفضائية العراقية!

القصاصات الصغيرة، المنشورات، كانت تشير الى الخطر المحدق بالبلاد.. لم يجرؤ احد منا على قول شيء .. اكتفينا بقراءتها دون تعليق.. وجمعناها

لدى الملازم لقمان الذي اخبرنا العريف قاسم انه سيرسلها مع أول مأمور الى الكتيبة..

كانت تلك القصاصات تشير الى حجم الكارثة التي حاول الملازم لقمان ان يقلل من شأنها.. رأيته يقلّب واحدة وانا آتي له بقدح شاي.. لم يرني حين دخلت عليه، فما زالت عيناه تحدقان بألوان المنشور.. صورة كاريكاتورية لجندي رسم على ساعده العلم الأمريكي، يجلس القرفصاء تحت بسطاله جندي آخر بملابس رثه، عرفت أنها صورة لجندي عراقي.. وهناك كتابة بحروف داكنة كنت قد قرأتها قبل ان اسلم ما جمعته من منشورات.. جملة مقتضبة: (سلم سلاحك الى قوات التحالف وعد الى بيتك!). . أي بيت هذا الذي سيخبئنا عن عيون مخبري الحزب وفدائيي صدام؟ انهم يملأون الشوارع والأزقة.. يزرعون العيون في كل مكان..

عندما التفت نحوي الملازم لقمان حاولت ان اتظاهر باني لم أره وهو يقلب المنشور، حييته، فرد التحية ببرود وهو يدس المنشور في جيبه.. ناولته القدح فقال:

- انهم يحاولون اخافتنا بأوراقهم اللعينة.. تباً لهم!

لم أجبه، واكتفيت بالتحديق في عينيه الغائرتين .. استمر يمضغ كلماته كمن يحاول ايصال رسالة من خلالي الى باقي الزمرة..

- الحرب التي تعلمناها كر وفر.. لكن هذه الجولة ستكون لنا.. ضحكت في سري وخرجت.

(4)

عاصفة هوجاء حولت الصحراء الى فقاعة كبيرة من الغبار.. طلب منا العريف قاسم ان نلتزم اماكننا وان لا نبتعد خشية ان يقع أحدنا في حقل الالغام.. المؤن تنفد، وهوائي جهاز الإرسال الوحيد لدينا قد كسر..

قال الجندي المخابر ضياء:

– لقد انقطعنا عن العالم..!

جاءني راسم وهو يحمل جهاز الراديو وهمس في اذني..

- الحرب ستبدأ..

- متى..؟

- الليلة او فجر الغد.. سمعتها من الراديو قبل أن يلفظ آخر أنفاسه!

اذن ها هي ذي حرب أخرى تطرق ابوابنا الخائفة لا نعرف مداها، ربما ستأكل منا الكثير مثلما أكلت الحربان السابقتان اصدقاءنا.. لا أدري ما الذي يخبئه القدر لي، هل افلت منها أم ستلتهمني نيرانها كما التهمت رامي من قبل..

رمال الصحراء أعلنت ثورتها وكأنها تتمرد على الحرب القادمة، بدأ الرمل يأخذ طريقه عبر ثقوب الخيمة ينساب مثل خيوط حتى خيل لي أننا سندفن أحياء داخلها ان لم تتوقف العاصفة.. مددت يدي حيث خيط الرمل النازل، شعرت بنعومته وبرودته ودغدغة خفيفة سرعان ما انتشرت في جسدي الذابل لتحيلني الى ايام الطفولة وشقاوتها حين كنا نلعب بكثبان الرمل التي رسمتها تلك الجرافات يوم كان الرجال منشغلين ببناء مدرسة جديدة بدلا عن الصرائف التي كانت تحمل اسم المدرسة..

صاح بي راسم:

- لقد امتلأت كفك، هل أناولك كفاً أخرى لتملأها!!

ضحكت، وضحك معي من كان موجوداً بينما راح الرمل ينزلق من بين أصابعي تاركاً في أرض الخيمة كثيباً اشبه بكثبان رمل الطفولة.

الليل هنا أطول من كل الليالي التي عشتها أيام السلم وزادها طولاً انطفاء الراديو الذي كان مؤنسنا في الليالي التي سبقت.. حاول راسم أن يجد لعبة تسلينا لكنه لم يفلح في ذلك لأن عريف قاسم قد قطع عليه الحديث

طالباً اياه ان يساعد بعض الجنود في تثبيت خيمة الملازم لقمان التي (طيّرت) العاصفة جزءا منها.. تبرعت في أن اكون من ضمنهم لا لشيء الا لكي أقضي بعض الساعات الطويلة التي أضحت تأكلنا بهواجسها ومفاجآت ما سيحدث.

(5)

اليوم التالي لم يكن أفضل حال من الايام التي سبقته، العواصف الرملية لم تهدأ، حجبت الشمس عنا بغطاء أصفر، ذرات الرمل تخدش وجوهنا والبرد مازال شديداً.. ورغم ذلك الجو العاصف فما زلنا نسمع أزيز الطائرات وهي تحوم تاركة على الوجوه حيرة..

صاح بنا العريف قاسم ان نتجمع في خيمة الملازم لقمان الذي أخبرنا بعد حين أن نأخذ الحيطة والحذر خشية ان يهبط علينا المظليون..

قرأت في عينيّ الملازم لقمان قلقاً لم أعهده من قبل، يبدو أن الحرب الوشيكة قد بدأت فعلاً، وعلينا أن نتهيأ للقادمين من السماء بأسلحتهم المتطورة الفتاكة..

قبل عام من الآن كنت قد شاهدت في بيت صديق فيلماً للممثل سلفستر ستالون جسد فيه شخصية اسمها (رامبو) وهو يقاتل في افغانستان بسلاح فتاك وجسد هرقلي! كل اطلاقة من سلاحه تفتك بالمئات.. يقاتل في أكثر من جهة ولم تنل منه قذائف المورتر التي يطلقها الافغان عليه.. (رامبو) صورة بشعة للمقاتل الأمريكي الذي على ما يبدو ان احتكاكنا به سيكون وشيكاً..

الحيطة والحذر في المفهوم العسكري يعني ان خطراً ما واقع لا محال.. وما زاد من خوفنا تأكيد الملازم لقمان لأكثر من مرة على المفردتين.. كيف ستنجو وحدة زرع الألغام الصغيرة هذه وسط صحراء مترامية الأطراف اذا ما هطل علينا المظليون كالمطر..؟

طلب منا العريف قاسم ان نكتفي بوجبة طعام واحدة وان نقلل من شرب الماء لنوفره لأيام قد تكون سيئة.. ومن أجل تنفيذ أمر العريف أعد قوائم بمواقيت ملء الزمزميات على ان نحتفظ بالماء فيها لثلاثة ايام وهو أمر نقدر على تنفيذه في هذا الطقس البارد حيث تكون الحاجة للماء أقل منها في الأيام الحارة...

هاجس المظليين الذين تحدث عنهم الملازم لقمان ظل يشغلني طيلة النهار وفي الليل أيضاً حيث أبقيت عينيّ ملتصقتين بسقف السماء منتظراً (رامبو) يأتي بسلاحه الفتاك ليدمر حقل الألغام بطريقته الغاضبة.

(6)

صباح جديد يبدأ من تلك الصباحات الثقيلة بعد ليلة امتزج فيها أزيز الطائرات بصفير العاصفة الرملية التي يبدو أنها لن تهدأ حتى تدفننا جميعاً..

أرسل بطلبي الملازم لقمان قبل ان اتناول بقايا صمونة البارحة.. وضعتها في جيبي في الوقت الذي حشرت رأسي بالخوذة الباردة..

قال لي الملازم:

- رتّب أمورك سنكلفك بواجب الى الكتيبة..

أجبته: كيف أذهب والسيارة لا تشتغل..؟

قال:

- ستذهب راجلاً.. أعرف ان المسافة بعيدة جداً عن المدينة لكنك ان استعجلت فستصل في الوقت المناسب..

لم أجب.. لكنه شعر فيما يدور في رأسي.. فأردف متسائلاً:

- ألست بطلاً في سباقات المسافات الطويلة..؟

- نعم، كان ذلك منذ زمان..

- أخبرني العريف قاسم بانك الفائز في كل سباقات المدرسة.. واعرف ان ذلك حدث منذ زمان لكنك استطعت ان تفوز ايضاً على ابناء دورتك العسكرية أليس كذلك..

- نعم وأنا جاهز لتنفيذ الأمر!

ابتسم الملازم لقمان والتفت الى العريف قاسم قائلا:

- جهزوا مؤونة تكفيه لثلاثة ايام وعتاد لبندقيته كافية لطرد وحوش البر عنه!

أدى العريف التحية العسكرية بعد ان أومأ لي بالخروج.. وقبل ان أخرج صاح بي الملازم لقمان: (لا تنس ان تشرح للآمر وضعنا واخبره ان كل الالغام قد سلّحت وهي جاهزة لاقتناص العدو وسلّمه المنشورات التي جمعناها)

خرجت من الخيمة واذا بالعريف قاسم يمسكني من يدي ويقودني الى المكان الذي نخزن فيه المؤن.. أشار الى صندوق وضعت فيه بعض علب الطعام الجاهز وقال:

– اختر ما تريد.. بازلاء او فاصوليا او باقلاء أو أي شيء ترغب فيه، كل المخزن بخدمتك.

أجبته وانا افكر بالطريق الطويلة التي سأسلكها:

- سأكتفي بالصمون وعلبة واحدة من الفاصوليا..
- العلبة لا تكفيك الا ليوم واحد..
- سأدبر أمري سآخذ من الصمون ما يكفي..

رد العريف مستغرباً:

- انت بحاجة الى طاقة والصمون لا يعطيك الطاقة المطلوبة..

أجبته مازحاً:

- لصمون الجيش طاقة لا يوفرها حتى التشريب الذي تحبه!!

ضحك العريف قاسم وضمني الى صدره مردداً: أنت بطل...أنت بطل.

فتحت الكيس وعبأته بالصمون وقبل ان اشده بحبل طوله ذراع وضعت علبة فاصوليا باردة.. قال العريف قاسم مازحاً:

- ستكون أول جندي يضرب رقماً قياسياً في أكل الصمون!!

ضحكت معه مجاملاً فيما راح العريف قاسم يغلق فوهة الكيس بالحبل المتسخ..

(7)

عدتُ الى الخيمة وبدأت بوضع أشيائي في الحقيبة الجلدية السوداء التي شاركتني كل سنوات الترحال.. كنت أحسبها جزءاً مني حيث لم تفارقني لحظة.. هي كل كياني، ففيها كل ما يشير الي من اوراق ومستمسكات.. هذه الحقيبة زرت الاسكافي لخياطتها مرات عديدة.. ذات يوم قال لي ساخراً:

- ألم تملّ من هذه (الجنطة)..؟

هو يعرف أن اجابتي هي ذاتها في كل المرات:

- ومتى تمل أنت من هذه المطرقة..؟

- هذه أداة رزقي..!

- وهذه تميمة أمي..!

لم يدرِأني طويت فيها كل سنوات شبابي، اشترتها أمي في اول أيام تجنيدي، قالت أنها زوّرتها للعباس وطلبت منه أن يتشفع لي عند الله ويعيدني سالماً لها.. ونذرت أن توزّع خبز العباس على كل جاراتها وهكذا فهي تفي بنذرها كلما أعود باجازة الى البيت حيث توزع الخبز على كل بيوتات المنطقة..

لم أنتهِ بعد من حزم أشيائي حين دخل عليّ العريف قاسم جالباً معه كيس وضع فيه كل المنشورات الامريكية التي جمعناها ومظروف سلّمني ايّاه ومعه ورقة (عدم تعرض) قال أنها ستقيني شرّ الانضباط العسكري وفرق الاعدامات..!

طويت الكيس والمظروف ووضعتهما في جيب الحقيبة بينما حشرت ورقة عدم التعرض في جيبي..

قال العريف قاسم:

- ورقة عدم التعرض تلك تشمل أيضاً السلاح الذي ستحمله كي لا يعترضك أحد..

أجبته باسماً:

- لا أخشى الانضباط العسكري قدر خشيتي من اصحابك..!

ضحك العريف قاسم حتى بانت اسنانه الصفراء فرط نيكوتين السجائر وأردف قائلاً:

- كنت أنا مثلك تماماً اخشاهم لكنني الآن لا اخشى احداً..
كما لا اخاف على شيء ابداً..!

لم يكن للعريف قاسم اصحاب واصحابه الذين نتندر بذكرهم هم الذين انتشلوا ولده الصغير من صفه المدرسي وغيّبوه والى الابد..

انبثقت دمعة في عينيه وراح يبحث في جيبه عن علبة السجائر، اشعل سيجارته وارتشف بشراهة دخانها كمن يريد ان يطفئ ناراً مخبوءة في الصدر..

قلت له:

- الله يكون في عونك يا سيدي..

قال:

- أخشى ان لا نلتقي ثانيةً..

- كيف..؟!

جلس فوق (جلكان) ماء كنا قد وضعناه في ركن الخيمة بينما رحت أتعقبه بنظراتي..

قال:

- الحرب القادمة ستكون قاسية لا تبقي على احد واذا سمعت بها وأنت في البلدة فلا ترجع الى هنا ابداً..

قلت:

- هناك فرق أعدام وسيعدمونني...

قال واثقاً:

- لن تجد من ينفذ ذلك..

وسط دهشتي اخرج العريف قاسم مظروفاً صغيراً آخر وسلمني ايّاه قائلاً:

- هذه وصيتي خذها معك، لا تفتحها الا بعد ان تضع الحرب أوزارها...

- لكنك ستنجو...

- من قال ذلك...؟ نحن في فوّهة نار ولا مفر من القدر..

- قل يا الله يا عريفي، لا أريد أن أراك يائساً هكذا...

أطرق برأسه الى الأرض وهو يتمتم..

- أن ما تراه أمامك ليس جسداً أنما هو جثة..!

وضعت يدي فوق كتفه ورحت أمسح بعض ما علق فيها من غبار .. قلت له:

سأزورك في بيتك واحتفي بك ولكن يا سيدي دعني أذهب وانا مرتاح البال...

(8)

الطريق الى أقرب مدينة يمتد لأيام، وربما ستزداد تلك الايام اذا ما صادفني شيء خلال رحلتي، ليست السماوة على مرمى حجر كما يقولون، انها ابعد من ذلك بكثير، انا احمل الآن مصير زملائي، عليّ ان اسرع الخطى وانقذهم من ذلك المكان المقطوع عن العالم، لا بد ان اصل قبل ان تبدأ الحرب فمن يعلم ربما الآن او بعد ساعة تنطلق شرارتها الاولى، واذا ما بدأت كيف ستكون الامور، وصية العريف قاسم تؤرقني، لماذا كتب وصيته ان لم يعلم انه راحل لا محالة، هل سينجو الجميع، وهل سأنجو أنا في رحلة لا أعرف منتهاها.. احياناً يؤدي الاصرار على شيء الى نتيجة جيدة وهذا ما سافعله، تلمست ساعة ابي السور فهي تعويذتي التي ربما تنجيني مما سيصادفني في الطريق الطويلة، عودة هذه الساعة لي مدت بي الامل، تذكرت يوم نسيتها في المغاسل لحظتها اصابني جنون احسست

بفقدانها اني فقدت زمني وافقد ابي من جديد. كان ابي يقول: " هذه الساعة تذكرنا بما ضاع من اعمارنا، كل حركة من عقاربها تطوي لحظة من اعمارنا، احرص على ان تستثمر كل حركة منها فالذي يمضي لا يعود ابدا".

لم تكن الليلة الاولى هادئة ، ومثل كل الليالي التي مضت هبّت عواصفها محملة بغبار لا يطاق، حاولت الاحتماء بكثيف رملي وأنا اضحك في سري على فكرة الاحتماء من الغبار بهذا التل الذي قد تدفنني رماله، المصباح اليدوي لم ينر لي سوى مساحة بسيطة من المكان الشاسع، لا اعرف كيف تذكرت تلك الليلة التي نقلنا فيها جارنا ابو جاسم الى مستشفى الطوارئ، كانت ليلة قاسية،مظلمة، واصوات القصف الايراني على البصرة يزداد، شتاء عام 1982 زهقت فيه ارواح كثيرة.. في تلك الليلة سمعت صراخاً في منزل جاري،ركضت نحو المنزل،كان عدد من الجيران قد وصلوا قبلي..

– ما الخبر..؟

قال احد الجيران..

- يظهر انه يعاني من زائدة دودية!

قلت:

- وكيف عرفت؟!

قال:

- أنسيت اني اعمل معاونا طبياً..؟

قلت معتذراً:

- لقد أنساني الصراخ كل شيء..!

حملنا جارنا ابو جاسم في سيارة المعاون الطبي التي طلاها بالطين حسب اوامر حكومية مشددة بطلاء جميع السيارات خشية رصدها من قبل غارات الطائرات، كما اصدرت الحكومة اوامر باطفاء كل مصابيح المنازل.. وصلنا الطوارئ وقد اكتظت باعداد هائلة من الناس، سيارات اسعاف عسكرية ومدنية تنقل عشرات الجرحى من معركة ابتدأت قبل يوم في منطقة بحيرة الاسماك شرق البصرة.

نقالات الطوارئ اصطبغت بدماء حارة، والجدران ما زالت تردد صدى أنين الجنود الحالمين بعودة مطمئنة للأهل.

حين دخلنا غرفة الطبيب لم يعر لنا اهتماماً فيما طلبت منا الممرضة التي كانت منشغلة بتحضير بعض المواد الطبية ان نضع جارنا ابو جاسم فوق سرير ما زال ملطخاً بالدم.

أنين ابو جاسم امتزج بأنين الجنود الجرحى وبعد معاينة سريعة للطبيب المناوب أحاله الى غرفة العمليات.. انتظرنا طويلاً قبل ان يفتح باب غرفة العمليات ليخبرنا رجل ارتدى بزة وقبعة خضراء ان ننقله الى الردهة التي لم نجد فيها سريرا فارغاً واكتفينا بوضعه فوق بطانية عسكرية افترشناها على الارضٍ.

تلك الليلة تشبه ليلتي هذه بظلمتها لكنها لا تشبهها بالانين المتصاعد من افواه الجنود.. ربما العواءات التي تأتيني من مكان بعيد قريبة منها، افكار عديدة تراودني في هذه الخلوة القاتلة.

- لماذا انا في هذا المكان..؟

سألت نفسي، لم اجد جواباً الا ان الله، ربما، سيخرجني من موت على ايدي الامريكان فالمكان الذي كنت فيه من السهولة ان تستهدفه الطائرات المقاتلة الامريكية، وان ما سمعته من الضابط لقمان مجرد كلام والعاقل لا يمكن ان يقتنع بأننا نستطيع ان نرد هجوماً لقوات تمتلك احدث التقنيات الحربية، نحن ندخل حرباً خاسرة كما قال الجندي راسم، يوهمنا قادتنا العسكريون ان ارادتنا اقوى من ذراع الامريكان العسكري.

الليل يكاد ينقضي وانا اجبر جفنيّ ان لا تنطبقان ولكن كما يقولون ان النوم سلطان وانا في حاجة للنوم كي استطيع الاستمرار نحو مدينة السماوة التي لا تبدو انها قريبة مني.

تفزعني اصوات الذئاب وهي تعوي، تأتيني من بعيد، وربما تترصدني وتنتظر لحظة الهجوم عليّ.. حشرت رصاصة في جوف بندقية الكلاشنكوف التي امتلأت فوهتها رملاً، ماذا لو باغتني قطيع الذئاب..

من الافق البعيد، بان قرص الشمس بحجم فوهة تنور بيتنا، وهو يشبهه تماماً، صورته ما زالت مطبوعة في رأسي يوم كنت امدّ رقبتي لانظر للخشب تأكله النار.. جوف من دخان يملأ ثقوب أنفي ونار تلسع وجنتيّ فيما يلسع محراث التنور ظهري مع زجرات امي وهي تبعدني عن النار،

تقول امي ان الشياطين تعيش في جوف التنور وعليك ان لا تحدّق بها كي لا تتلبسك... آه لو تعلمين يا أمي كم شيطان يعيش بيننا وليس في جوف التنور بعد ان غاب التنور عن بيوتنا ونسينا رائحة الخبز الحار..!

قرص الشمس البعيد لم يوقف زحف برد الليلة الماضية، ما زلت ارتجف ولم اعد استطيع ان امسك بندقيتي، الطائرات بدأت تتدفق، ذهاباً ومجيئاً، والطريق الى السماوة تمتد بامتداد الافق... ها قد بدأ يوم جديد لكنه لم يختلف عن الامس الا ان حدث شيء لم يكن بالحسبان.

كان عليّ ان اوسّع خطوي لاختصر زمن الوصول وانقذ من تركتهم هناك عند الحدود.

العواءات التي كنت اسمعها البارحة اختفت عن المشهد والخوف الذي كان يلازمني انجلى بانجلاء الظلمة..

(كن واثقاً من خطوك!) اسمع صوت أبي يأتيني من بئر الذاكرة العميقة..

(كل شدة تزول) كررتها مع نفسي، فلا شدّة اشد من هذه التي انا فيها..

هرولت باتجاه الشرق وكلمات أبي تلاحقني.. قال لي: ستنجح ان عبرت تلك القبور، كانت مقبرة الحاج مهاوي تضم اجداث اطفال محلتنا، منهم من مات بالجفاف لنقص الغذاء او الدواء،ومنهم من اصابته عين حاسدة مثلما كانت تردد نسوة المحلة ويحكين قصصاً تخيفنا: (في الليل يخرج الاطفال الموتى، يلعبون معاً، عراة،حفاة، يرددون نشيد البرزخ، يبحثون عن أسرّة وألعاب غادروها وامهات يبست اثدائهن، ايّاكم والتقرب منهم كي لا يجرونكم الى اسفل!).

شريط الطفولة يمر امامي، بحكاياته المتداخلة، ووجوه لم أعد اعرفها، وجوه مختلفة، تومض امامي، وثمة اصوات كأنها تخرج من بئر عميقة.. من بعيد، كان خيط دخان كثيف يمتد على مسافة وأزيز طائرة يبتعد.. هرولت شوطاً، وكثبان الرمل الابيض تهرول معي، كلما ابتعدت عنها، ابتعدت... الافق يمتد ويمتد كأن لا نهاية له، ساعة من الوقت مضت، طويلة ومرهقة.. توقفت لارتشاف ماء من الزمزمية، بللت ريقي وشفتي واحتفظت بما بقي من ماء ربما لم يكمل معي المسير..

صوت خراف اسمعه من بعيد، خلف كثيب على يميني، خلته من الاصوات التي تأتيني من بئر الذاكرة، لكن الاصوات بدأت تسمع عالياً، اتجهت يميناً، وبانت كتل الصوف امامي تتوسطها امرأة وهي تمسك عصا، واخفت كل وجهها ما عدا عينين واسعتين، لم ترني الا بعد ان اعتليت قمة الكثيب الرملي، صاحت بي:

- لا تقترب من شياهي..

قلت لها..

- لا اريد بك سوءاً، انا جندي عراقي تائه في هذه الصحراء..

توقفت، ونظرت يميناً وشمالاً.. وقالت:

- ما الذي أتى بك الى هنا..؟

- جئت ابحث عن قضاء السلمان لانقذ زملائي الذين تركتهم عند الحدود..

حدّقت بي طويلاً، وراحت عيناها تتفحصان كل قامتي.. ربما اقنعتها كلماتي الاخيرة.. اقتربت مني حاملة قربة ماء..

- خذ هذه واشرب الماء..

- اريد فقط ملء الزمزمية..

ناولتني القربة وملأت زمزميتي حتى انهمر منها الماء جانباً..

قالت:

- أظنك في حاجة للطعام، لدي خبز وتمر...

جلست على الرمل، ووقفت هي قبالتي بعد ان اخرجت من بقجتها الموضوعة على ظهر حمار قطعة خبز وضعت في منتصفها تمراً..

منذ زمن لم اتذوق طعم التمر، مددت يدي، واخذت تمرة واحدة، قربتها من فمي، وعينا المرأة تترصداني، رفعت بصري نحوها، ابتسمت لاطمئنها بأن مذاق التمر أعجبني لكنها بادرتني قائلة:

- تمر برحي!

- نعم، برحي..

- أظنك لم تتذوقه منذ مدة طويلة...

أجبتها وانا اضع تمرة وسط قطعة خبز صغيرة:

- كان لدينا بستان صغير، فيه ثلاث برحيّات..

قالت وهي تبعد بعض الخراف التي راحت تقترب مني:

- لدي المزيد منه..

وأومأت لي ان اكمل أكل ما بين يدي ثم اردفت قائلة:

- اذا احتجت للماء فالقربة هنا، على ظهر الحمار!

شكرتها وأنا أمضغ الخبز والتمر، ابتعدت عني بخطوات وئيدة، حاولت ان ارسم ذلك الوجه خلف اللثام بخيالي، وجه بدوي بوجنتين ناضجتين وشفتين بلون الغسق..

سمعتها من بعيد تنادي:

- هل صادفك قطيع الذئاب خلال مسيرك..؟

- سمعت عوائها لكنها لم تدن مني..

شعرت وهي تبتسم حين قالت:

- ربما لم يعجبها لحمك، حتى الذئاب لا تستسيغ لحم الجندي العراقي!

ضحكت وهززت رأسي وانا انهي آخر قطعة من التمر.. مددت جسدي على الارض واحسست ببرودة الرمل واستسلمت لاغفاءة باغتتني على موسيقى خوار قطيع الغنم.

من مكان بعيد، جاءني صوت أبي: لا تستسلم سريعاً، الرجال لا يستسلمون ابداً..

من مكان آخر، سمعت أمي وهي تنعى ابن أخت لها قتل بقصف ايراني على مدينة البصرة عام 1982، صوتها يأتيني ضعيفاً:

(ردتك تجي وتشوف حالي

دونك ما بقى بالدنيا لي والي

يا بدر العشيرة وانت غالي

مكانك ظلمة يبني البيت خالي)

لم تذرف دمعاً قدر ما ذرفناه، نحن الصبية، يؤلمنا النعي، وطريقة الاداء، لكنها كانت تجمعنا في حجرها وتمسح على رؤوسنا المتسخة.. ربما كانت تقرأ في عيوننا مصائرنا وتخشى ان يقتطفنا القصف العشوائي كما اقتطف ارواح كثيرين من ابناء محلتنا الذين لم يسعهم الوقت للجوء الى مناطق اكثر أمناً.. كانت مدينة البصرة في تلك السنوات الصعبة مترعاً لصواريخ الحرب، كل الشوارع استهدفت، وكان قلب المدينة (العشار) خالياً من الناس باستثناء المجانين الذين انتشروا بصورة غريبة، لا نعرف من أين جاءوا، لكنهم راحوا يتكدسون قرب دائرة البريد وساحة ام البروم، مرة قال رجل ان اولئك ليسوا بمجانين، هم من رجال الامن يراقبون المدينة ويبلغون الحكومة عن كل حالة خرق للامن! وأقسم انه سمع احدهم وهو يتحدث بجهاز لاسلكي يدوي (هوكي توكي) في زاوية من زوايا العشار.. عندها صرت ابتعد عن كل مجنون يصادفني في الشارع خشية ان اتورط مع الحكومة!

في احدى ظهيرات تموز، كنت مضطراً لاجتياز الجسر الحديدي لنهر العشار، باتجاه (سوق الهنود)، لم يكن هناك غير جنود ترجلوا من سيارة ايفا يحاول احدهم، وأظنه السائق، تبديل عجلتها لربما ثقبت جراء شظايا الصواريخ المنتشرة على الارض، في تلك الظهيرة توقف القصف، وكانت فرصة جيدة لاعادة اكتشاف وجه المدينة التي كانت ذات يوم تعج بالبشر من شتى اصقاع الأرض..

وجه المدينة شاحب، مثل وجهي تماماً وأنا أمعن النظر في البنايات المهجورة والمطاعم المغلقة وبارات شارع الوطني التي لم يبق منها سوى لافتات تعلن عن حفلة المساء بتواريخ ميتة بعد ان غادرها الباحثون عن السهر والرقص والغناء يوم كانت المدينة لا تنام، خلف هذا الشارع تماماً يمتد شط العرب الذي هجرته هو الآخر العشّاريات وتجمعات البصريين ايام الاعياد، وها هوذا السياب شاخصاً بلونه البرونزي وجيبه المثقوب وأوراقه المخبأة فيه، يحرس المدينة،

أكاد أسمع صوته:

(الشمس اجمل في بلادي من سواها، والظلام

حتى الظلام، هناك اجمل وهو يحتضن العراق!)

أي ظلام هذا أكثر من ان ترى مدينة فارغة، يحاصرها الموت، وتدق عنقها الصواريخ، يا سياب، أومئ لنوارس الشط ان تقتفي اثر الفارين من النار أن يعودوا الى الديار، فالشوارع التي يقتلها الصمت في حاجة الى الناس، يملأونها صخباً وحياة.. والساحات المليئة بشظايا الراجمات تنتظر الاطفال ان يعيدوا لها البهجة، ولكن.. متى؟

في كل شارع ينتابني ذات السؤال: متى تنتهي الحرب القذرة..؟! ولماذا نتقاتل أصلاً ما دمنا نفخر بإسلامنا ونصلي كل يوم خمس مرات، الا نخجل من الله اذ تزهق الأرواح من اجل شيء لا نعرفه..؟ الطرفان يرددان ذات القول: (نصر من الله وفتح قريب)، ترى الى أي طرف يرسل الله جنداً من السماء، والى اية فئة ينحاز مادام الفئتان تلهجان بأسمه!

خلف ملهى النصر، وليس غريباً أن يكون للنصر ملهى، ومرقص، وغانيات، ربما لم يفكر من اطلق اسم النصر على الملهى بما افكر فيه الان، فالنصر الذي طبل له الطرفان أكل كثيراً من الشباب الحالمين بمستقبل آمن، والنصر الذي لا نعرف ملامحه اغتسل بأنهار من الدم، اقول، خلف ملهى النصر التقيت بتلك المرأة القوّادة، لم تترك الملهى رغم ان جزءاً منه قد انهار بفعل ضربة صاروخ، كانت ذات يوم تمتلك قواماً يسيل له لعاب أصحاب المال، هي اشهر امرأة في المدينة حتى ان شهرتها انتقلت الى دول الجوار وكان الخليجيون يقضون لياليهم في الملهى، نرى سياراتهم تقف في الساحة المجاورة، بينما ينسلون بدشاديشهم البيضاء الى الداخل ليخرجوا عند الفجر فارغي الجيوب! بعد هذه السنين تغيرت المرأة وسقط جزء كبير من شعر رأسها، قالت لي:

- ألديك سيجارة..؟

قلت:

- أنا لا أدخن...

قالت:

- المدينة كلها تدخن، لماذا انت لا تفعل..

لم أجبها، حاولت الابتعاد عنها لكنها نادت بصوت عال:

- أنا بحاجة الى دينار.... هل عندك دينار؟

مددت يدي في جيبي واصطدمت اصابعي بالدراهم المتبقية فيه، قلت لها:

- لدي ربع دينار فقط..

قالت:

- حسناً، اعطني ما لديك من دراهم...

اخرجت يدي من جيبي بعد ان قبضت على ما يمكن التقاطه ووضعته في يدها، استدارت حيث جهة باب الملهى الذي ما زالت صورة الراقصة بثوبها المخملي تتصدره، دخلت دون أن تشكرني!

قلت في سرّي: "لا عتب على قوّادة! "

قبل ترميمه، لم يكن ملهى النصر بهذا الحجم، لكنه بعد الحريق الذي شبّ فيه أعيد بناؤه واضيف اليه ساحة كانت بالخلف منه.

قال أحد الجيران وهو يحدثنا عن حريق الملهى أنه استطاع أن ينقذ راقصتين، يقول: "حملتهما على كتفي وأخرجتهما من بين ألسنة النار".. عندها أجابه ابو شامل، وهو من نطلق عليه لقب ابو نؤاس الحي، "لك الأجر والثواب الا اذا لم تقم بمداعبتهما..".

ابتعدت كثيراً عن مرأب السيارات وكان لا بد لي من العودة، ولكي اكتشف وجه مدينتي الذي شغلني منذ بدأت الحرب الرسمية في الثاني والعشرين من ايلول عام 1980 سلكت طريقا آخرى تأخذني عبر الازقة الضيقة للمدينة القديمة، اسرعت الخطى، فعادة مثل هكذا وقت من النهار يبدأ القصف المدفعي، العشار تبدو أصغر مما كانت عليه في السابق، لا ادري هل تتوسع المدن بتكاثر الناس فيها.. ويمكن ان نعيد صياغة السؤال: هل تموت المدن فيما اذا غادرها أهلها.. ؟ البصرة في صيف 1982 شبه ميتة لم يبق فيها الا الجنود العابرون نحو جبهات الحرب، والمجانين، وجالية صغيرة من المصريين

والسودانيين.. الدوائر أغلقت ابوابها وبعضها انتقل من منطقة العشار الى مناطق أبعد كي لا تنوشه شظايا القصف..

صوت طائرة هيليوكوبتر تتبعها طائرتان اخريتان تتجه نحو الجنوب باتجاه الشريط الحدودي لام الرصاص والسيبة والمعامر والفاو.. رفعت رأسي الى أعلى وعرفت انها طائرات غير مقاتلة لأنها لم تحمل الصواريخ تحت بدنها الثقيل، ربما هي طائرة قائد من قادة الفيالق وربما هي طائرة الرئيس صدام! ابتعدت الطائرات الثلاث وابتعدت أنا عن المكان تاركاً اسئلتي تتارجح على الارصفة الساخنة التي كانت ذات يوم تستقبل خطوات العمال وصباغي الاحذية والنساء اللاتي بحثن طويلاً عن الغائبين والمغيبين في نقرة السلمان ودهاليز الشعبة الخامسة والرضوانية، ومنهن ام جاسم التي اختطف ابنها من سوق الخضار حيث كان يعمل، معيلا لها بعد أب استدعي الى مقر الفرقة الحزبيه للاستفسار عن أمر لم يخبرهم به الرفيق شعبان والذي يطلق عليه اهل المنطقة (الاعور) لأنه فقد احدى عينيه في مجابهة بالاهوار مع عناصر المقاومة العراقية بينما يفتخر هو بعينه التي قلعتها شظية هاون 82 مليم تم تكريمه بنوط شجاعة وسيارة خاصة بالمعاقين..ابو جاسم الذي قيل له انه سيعود الى بيته بعد الاستفسار منه من قبل المسؤول لم يعد رغم مضي اكثر من سنتين لكن الحكومة،بعد عام،ارسلت شهادة وفاته التي تشير الى انه (استشهد)،هكذا كان مكتوباً وقرأناه جميعاً، خلال مشاركته بمعركة قادسية صدام في مهران، ومنحت ام جاسم على اثرها راتباً تقاعدياً لم تستلم منه درهماً كما كانت تهمس لجاراتها، فيما بقيت تنتظر عودته في اية لحظة، حتى ان

نامت فتبقي اذنيها تترصدان باب الحوش وتقول لولدها جاسم: "لاتذهب بعيداً سيأتي ابوك الليلة!" لكن جاسم غاب هو الاخر اثر ابيه ولم يعد، فبدلا من ان تنتظر واحداً اضحت تنتظر اثنين، لهذا يحلو لنساء المحلة ان ينادينها بالصابرة، وصارت مثلاً لنا جميعاً.. وذات مساء وجدت ام جاسم مظروفاً عند عتبة الباب وعندما فتحته وجدت فيه 500 دولار قالت فيما بعد ان ابا جاسم ارسلها وهي بشارة خير! وفي ذاك المساء راحت تطرق ابواب بيوتنا وتصيح:"ألم أقل لكم انه حي!".

هذه الأرصفة تحمل تحت ضلوعها حكايات الباحثين عن الأمن والخبز، كل ذرة تراب تقول:"ألم أقل لكم انه حي"، فصار الأحياء الغائبون أكثر من السائرين في نومهم، كل واحد فينا ينتظر غائباً، وكل غائب صار حكاية.

العشار تنزع سخونتها، وتبدأ الشمس بالهبوط، كان اهلنا اذا ارادوا ان يشيروا الى غروبها يقولون:"طاحت الشمس" لكثرة الذين يطيحون منا! وها هي تطيح رويداً رويداً وكان لابد من مغادرة المكان والعودة الى المنزل فالذين ينتظرونني هناك يعتبرونني مجنوناً، وها آنذا بعدما استأمنت على مدينتي وتيقنت انها ما زالت تحتفظ بعذريتها، اسلمها الى الله. اسرعت الخطى ينتابني شعور ان العاصفة لابد من مجيئها بعد الهدوء المخيف هذا، وصدق ظني، وبدأت موجة جنونية من قصف لا يرحم، في البدء كان بعيداً لكنه الان كمن يستهدفني، تعثرت بحجر لم اره، سقطت في اللحظة التي احسست فيها بضربة قوية، فتحت عيني، قالت راعية الغنم:"ابق في مكانك، لا تتحرك، لقد تخلصت منه لكنه اصابك"..

قلت: القصف...؟

قالت: بل العقرب..!

- **أي عقرب..؟**
- **خلال نومك اقترب منك لكنني استطعت اللحاق به، انظر ها هو ذا هناك..**

نظرت الى جانب، كان العقرب قد قطع ذنبه، اخرجت المرأة سكيناً ومزقت جزءاً من سروالي فبدت بقعة حمراء في ساقي، وبعد ان ربطت اعلى ساقي بحبل ناعم وضعت فمها في المكان الذي احدثه العقرب وراحت تمص الدم وتبصقه جانباً فيما وهنت قواي واستسلمت لنوم عميق.

(9)

هذا ما كنت قد توقعته من قبل، حينما بدأت رحلتي باتجاه الشرق حيث المدينة التي اصبحت مفتاح النجاة لارواح تركتها هناك، وها آنذا أجدني وسط خيمة في عمق الصحراء، تداخلت بي الاتجاهات ولم اعد اميّز الشرق عن الغرب، ولا أعرف هل هذا الذي على يمين الخيمة هو الشمال ام الجنوب، ولا اعرف كم يوماً بقيت هنا، ساعة او يوم وربما شهر وهذا ما تشير اليه لحيتي.. وفيما كنت منشغلاً باجابات اسئلتي دخل الخيمة شيخ تجاوز الثمانين، لم اره من قبل، دخل حاملاً بندقية كلاشنكوف، كأنها بندقيتي، جلس بجانبي دون ان يتكلم واضعاً البندقية على الأرض، بعد لحظة صمت قال:

– هذه بندقيتك، وبقية حاجياتك بالحفظ والصون..

حاولت ان استدعي مزيداً من الكلمات الا أني لم استطع الا النطق بكلمة واحدة:

– شكراً...

قال:

– حين جاءت بك جميلة كنت غائباً عن الوعي..

تزاحمت في رأسي الأحداث، ونسيت كثيراً منها، أي جميلة تلك التي جاءت بي الى هنا.. ولماذا جاءت بي الى هنا..كأنني في حلم، وتمنيت ان افيق منه لأعرف الإجابات عن أسئلتي،قال الشيخ وهو يدنو مني اكثر:

– حمدا لله انك ما زلت على قيد الحياة، ابتسم الشيخ واكمل حديثه، كن منتبها وانت تعبر الصحراء ففيها من المفاجآت ما لم تكن تتوقعه..

في اللحظة التي اردت فيها الكلام دخلت شابة حاملة صينية وضعت فيها خبزا وماعونا ملئ باللبن، نظر اليها الشيخ وقال:

– ضعيها هنا واجلسي..

جلست الشابة بينما أشار الي الشيخ ان ارفع جذعي وساعدني هو في وضع وسادة مصنوعة من الصوف خلف ظهري، مددت يدي نحو ماعون اللبن لكن ارتعاشاتها منعتني من حمل الماعون، أشار الشيخ الى الشابة ان تساعدني، مدت يدها وأمسكت الماعون وقربته من فمي، بدا اللبن يسري في عروقي وقد اشعرني بالارتياح..

قال الشيخ:

– اللبن يعيدك الى وضعك ويقوّيك.. هذا لبن خالص، يخرج كل السموم من بدنك ..

شربت حتى انهيت كل ما في الماعون، قالت الشابة بصوت خفيض:

– بالهنا والشفاء..

نهض الشيخ وقبل ان يهم بالخروج قال:

–اهتمي به..

ابعدت الشابة الصينية الى احدى زوايا الخيمة ثم اقتربت مني وتحسست ساقي، وضعت يدها بهدوء وشعرت بنعومتها، قلت لها:

– بماذا اناديك..؟

قالت:

– أنا جميلة..

قلت: نعم انت جميلة..

ضحكت وقالت:

– لم أسالك عن جمالي، أنا اسمي جميلة!

لم اجبها وشعرت بغبائي من إجابة جاءت سريعة مني..

قالت:

– لا عليك، فذاكرتك ضعيفة بفعل السم، سبق وان اخبرتك باسمي قبل الحادث..

قلت لها:

– ما الذي جرى ؟

راحت تحدثني بينما انشغلت عيناي بتحسس مفاتنها.. اي جمال هذا الذي نما وسط صحراء قاحلة.. وأي قوام بدا مثل عمود الخيمة، جميلة، اختزلت

كل جمال الكون، جمال كوني لم تجرِ المدنية عليه تغييراتها، ابهرني جمالها قدر انبهاري بما لقيته منها ومن الشيخ..

هذه البدوية عرفت أني لم اصغِ اليها، توقفت عن الكلام وراحت تتاملني، قالت:

– اظنك لم تصغِ للحكاية!..

قلت:

– يكفيني ما لقيته منكم...

قالت باسمة:

– كل الناس هكذا، واعتقد لو كنت انت بمكاني لفعلت ذات الشئ...

هل تدري هذه البدوية ان المدن اكلت أبناءها، وما عاد المرء يهتم بالاخرين.

قلت لها:

– لو كنت بمكانك لما عرفت كيف أتصرف..

قالت:

–علمني والدي كيف أتعامل مع العقارب والأفاعي في هذه الصحراء، وعلمني كيف اطبب نفسي اذا ما تعرضت للدغاتها.. هل تستطيع ان تحزر كم مرة لدغت من عقرب او أفعى..خمس مرات لكنها لم تكن بالعنف الذي تعرضت اليه ..

– هذه الصحراء قاسية..

قالت:

–علمتني الصحراء اشياء كثيرة، صرت اعرفها اكثر من ان اعرف نفسي..

– يداك طريتان!..

ابتسمت وقالت بخجل:

– كيف عرفت..؟!

–احسست بيدك وانت تتحسسين ساقي وتساءلت كيف احتفظت بطراوتها..

–البدوية لا تبوح بسرها!

ضحكت وبانت لآلئ فمها ..

قلت:

– ليس من اللائق ان اتفوه بهذا لكنه الفضول!..

قالت:

– هي المرة الاولى التي اسمع فيها كلاما كهذا، قضيت حياتي بين شياهي وخيمتي وأبي.. كل عالمي انحصر فيها، لم اكن اتوقع ان التقي بغريب وأتحدث معه..

هذا الغريب الذي انقذت حياته يرى فيك خلاصة وجوده، بل يرى عالماً بريئاً خالياً من أدران المدنية، ليتك تعرفين ما يدور برأسي، كم كنت اتمنى ان تكون حياتنا بسيطة مثل أركان هذه الخيمة، وكم كنت اتمنى ان يكون الناس هكذا، جميلة لم تكن مجبرة ان تنقذ حياة غريب، أنا غريب مثلما قالت لكنها انقذت هذا الغريب دون ان تنتظر مكافأة منه، ليت المدينة تصبح في تعاملها مع الانسان كما يتعامل الشيخ وابنته مع الطبيعة، بساطة وبراءة ورحمة، اعتقد ان

الطبيعة لم تغدر بهما مثلما غدرت بنا مدننا.. الطبيعة هنا تعطي بقدر ما تاخذ المدن منا، آه ما اقساها واغبانا!..

نهضت جميلة، فقطعت تفكيري، قالت:

–علي ان اتركك الان، ساذهب للرعي، مذ دخلت انت هذه الخيمة لم ترني غنمي الا قليلا، علي الاهتمام بها مثلما اهتممت بك....

ضحكت وهي تردد آخر عبارة وشعرت ان لضحكتها موسيقى لم اسمع اعذب منها قط في حياتي..

قلت لها:

–هل ساراك ثانية..؟

قالت:

–خيمتنا واحدة!....

خرجت في وقت خالجني فيه شعور بان التي كانت امامي ملاك بجسد انسان..

(10)

عند الزوال، جلست وفككت بندقيتي، الملل بدا يأكل رأسي، أردت ان أتخلص منه، بدأت بتنظيف الأجزاء الداخلية للبندقية، ازلت الغبار عنها، ربما سأحتاجها في الوقت اللاحق حين أبدأ مشواراً جديداً من رحلتي، لا أعرف ما الذي جرى لزملائي، هل بدأت الحرب، هل ما زالوا في تلك البقعة من الحدود، كل ذلك لا أستطع تخمينه، برودة أجزاء البندقية تلسعني بالرغم من ان جسدي قد تعوّد على لسعات ريح الصحراء الباردة..

دخل الشيخ الخيمة ممسكاً بسجادة صلاة، قال وهو يقدمها لي:

– حان وقت الصلاة...

نظرت الى سجادة الصوف بينما راح الشيخ يراقبني، نهضت وفي نيتي ان أخبره باني لا أعرف كيف اصلي..

قال الشيخ:

–أظنك لم تصلِّ في حياتك!..

قلت:

– نعم يا شيخ...

قال وكانه يلومني:

–لا سلطة لي عليك يا رجل الا انك لا بد ان تعرف ان الله أحق بالعبادة من عبادة الفرد...

قلت مستغرباً:

– ومن يعبد فرداً..؟!

قال:

– ربما انت لست منهم..

عرفت ان الشيخ يلمّح لأولئك الذين ملأوا ازقتنا بالعيون، وغيّبوا كثيراً من الناس ولم يعد لهم أثر..

قلت له:

–أنا واحدٌ من ضحاياهم!..

يبدو ان الشيخ بدأ يطمئن لي وهو واضح من سؤاله:

–هل انت هارب منهم..؟

قلت:

– أنا جندي..

– اعرف ذلك.. ولكن هل انت هارب من الجندية..؟

– لا.. أنا ذاهب لطلب النجدة لبعض الجنود في الحدود.

– هل تقدر..؟

– سأحاول..

– امامك طريق طويل ربما يظنونك هارب وتعتقل..

– لدي عدم تعرض..

صمت الشيخ لحظة ثم قال:

– الان، هل ترغب في ان تصلي..؟

– نعم، ارغب في ذلك.

خرجت من الخيمة ولسعتني ريح شمالية باردة، تبعني الشيخ وأشار الى مكان قريب من الخيمة قائلاً:

– ضع سجادتك جوار تلك السجادة...

خيط من الضوء امتدّ حيث المكان الذي فرش فيه الشيخ سجادته، قلت له وانا افرش سجادتي واتحسس الرمل الذي ما زال بارداً..

– لماذا لا نصلي داخل الخيمة..؟

قال الشيخ وقد انتصب جانبي:

– هنا تكون اقرب الى السماء!..

وقفت بجانبه تلفني الحيرة في كيفية اداء الصلاة، باغتني الشيخ بالقول:

– قبل ان تصلي عليك بالوضوء..

أشار الى إبريق قريب قائلاً:

– وضعت لك ماءً دافئاً.. هل تريدني ان اعلمك الوضوء..؟

– اعرفه يا شيخ..

توضأت، وبدأت اقلد الشيخ في حركاته وأردد خلفه مايقول حتى اذا انتهى التفت اليّ وقال:

– ستحرسك عين الله في رحلتك، أوعدني ان لا تترك الصلاة فليس لك غير الله في هذه الصحراء الواسعة..

اعدت جميلة العشاء، وقفت عند شق الخيمة، الفانوس يرسم هالة من ضوء خلفها، لم أرَ عينيها الا أني اشعر ببريقهما، طوى الشيخ سجادته ووضعها تحت إبطه وأشار اليّ ان الحق به حيث العشاء، ظل الجسد الذي اراه جعلني اتجمد في مكاني، لم ارَ منه أية ملامح الا ان مخيلتي رسمت لوحة برّاقةً لأنثى اطلقت شعرها للريح بانتظار فارس يأتيها بفرح طفولي وحب لا وجود له..

صوت الشيخ من داخل الخيمة أخرجني من تخيلي المباغت، طويت سجادتي، ودخلت الخيمة.. تربع الشيخ على الارض، وجلست جميلة في زاوية الخيمة خلف أبيها، وتربعت أنا قبالة الشيخ، قال لي:

– قل بسم الله وكل..

مددت يدي، وزحف نظري نحو جميلة، لم تريني، وتمنيت لو رفعت رأسها ونظرت لي، قال الشيخ:

– أراك قد استعدت عافيتك، اذا رغبت في البقاء معنا فأهلا بك، وان اردت الرحيل فتوكل على الله في الوقت الذي تشعر فيه ان قدميك تحملانك.

قلت له:

– لا اريد ان اتعبكما معي اكثر من الوقت الذي مضى، سأكون جاهزاً للرحيل بعد يومين..

قالت جميلة:

– لم نقدم لك ما يجعلك ان تقول هذا، نحن بدو، والبدوي يكرم ضيفه...

قلت:

– لست ضيفاً أنا اشعر أنكم اهلي..

قال الشيخ:

– تذكرني بولدي شاهر، كان شجاعاً وجريئاً وكريماً ..

قلت:

– وأين هو الآن..؟

نظر الشيخ الى جميلة، قال لها:

–هاتِ القهوة..

نهضت حيث الدلة الموضوعة وسط جمر امتلأت به الحفرة، حدّق الشيخ بي وقرّب رأسه مني وقال هامساً:

– لا اريد ان ازيد اوجاعها، قُتِلَ ولدي شاهر في الصيف الماضي.. اصطدم بمفرزة شرطة الحدود كانوا يبحثون عن مهربين وظنّوا انه واحد منهم، اطلقوا عليه الرصاص اولاد الزنا..

توقف الشيخ عن الكلام في اللحظة التي دخلت فيها جميلة الخيمة حاملة دلة القهوة وفنجانين، قال لها:

–اعطِ لولدي اولاً ..

أشار بيده نحوي، واكمل:

– كل ما بقي لي في الدنيا هذه، كانها ام شاهر في صباها، هي تذكرني بها..

أخذت فنجان القهوة من يدها، ارتشفت قليلاً منه، شعرت بمرارة القهوة ..

قال الشيخ وهو يراني اقاوم المرارة:

–اذا رغبت في البقاء معنا عليك ان تتعود على هذا الطعم، اعرف ان الحضر قليلاً ما يشربون القهوة وهم يفضلون الشاي عليها، المرارة يا ولدي تجعلك اشد باساً، وتعلمك طعم الحياة الحقيقي ..

قلت له:

–هل تصدقني ان قلت لك أنا لا اشرب الشاي..؟

ضحك الشيخ وقال مازحاً:

–لا اظنّك تشرب شيئاً آخر!..

ضحكت وضحكت جميلة وقالت:

–ابي يمزح معك...

قلت:

–لم يقل الا الحق، بالفعل أنا اشرب شيئاً اخراً وهو غير موجود هنا..

نظر الشيخ الى جميلة مبتسماً وقال:

–اهل المدينة يشربون كل شيء..حتى المنكر!

قالت جميلة:

–أعوذ بالله.....

قلت لهما:

– لست من الذين يشربونه..

ابتسم الشيخ، وتمدد على الفراش، استأذنت منه وخرجت من الخيمة، جلست امام الموقد، وبدأت انبش في الجمر، واستمع لنباح الكلب الوحيد، موسيقى الصحراء المترامية الأطراف، جاءتني جميلة حاملة حقيبتي، قالت:

–هذه حاجياتك..

نظرت لها، أخذت منها الحقيبة ومددت يدي بداخلها، اخرجت ساعة السور، جلست جميلة قبالتي في الجانب الاخر من الموقد وقالت:

– هناك اوراق في الحقيبة ايضاً...

اجبتها وانا أضع الساعة في يدي:

– تلك هويتي وعدم التعرض ورسالة من صديق لاهله..

قالت:

– هل ستغادرنا..؟

نظرت اليها وشعرت بحزن في نبرتها..

اكملت وهي تحدّق في الجمر:

– رغم انك كنت غائباً عن الوعي الا ان وجودك معنا أسعدنا..

قلت:

– أنا سعيد بكما حقاً.. لا اعرف هل سنلتقي ثانية..

قالت:

– ان أراد الله ذلك، هو الذي جمعنا ويفرقنا وربما يجمعنا من جديد...

قلت باسماً:

– يجمعنا ولكن دون لدغة عقرب..

ضحكت جميلة، ووضعت يدها على فمها، ربما كانت تخشى ان يسمع الشيخ قهقهاتها، مدت يدها نحو الجمر، حيث يدي التي وضعت الساعة فيها قبل لحظات، حركتها جانباً، ولامست طراوة يدها، حدّقت فيّ، واستسلمت لاصابعي وهي تتذوق نعومة أناملها، تأوهت، وشعرت بجمر أنفاسها..

قالت:

– لا تذهب بعيداً، عد إلينا، تعودت على وجودك معي..

اجبتها وانا اهيم بطراوة يدها:

– من يشعر بدفء يديك لن يغب طويلاً..

قالت:

– افهم انك سترجع إلينا حتى لو بقي من عمري يوم..

استدارت حيث الجهة التي أنا فيها من الموقد، جلست لصقي ويدها لم تبارح يدي، قلت:

ليس من المناسب ان افعل هذا لكني انجذب إليك..

قالت:

– لا شيطان بيننا، جمعنا الله تحت سقفه..

حدقت في عينيها اللتين بدتا تاكلانني، مدت يدها الاخرى الى صدري وبدأت تنبش فيه كمن يبحث عن ضائع، دنوت منها حتى صرت اسمع

أنفاسها، تذوقت طعم الشفتين وذابت هي بين يدي.. اقترب الكلب الذي كان ينبح قبل قليل منا، شعرت بلسانه الخشن وهو يلعق اسفل قدمي فيما كانت جميلة تتاوه بين يدي، قالت:

– المبتور يغار منك...

قلت:

– مَنْ....؟

قالت:

– الكلب، يغار منك

أجبتها وانا امسح راس الكلب بيدي:

– احب هذا الكلب!

لا ادري كيف حدث هذا، صرت أعاتب نفسي واؤنبها، اي شيطان هذا الذي باغتنا في ظلمة الليل، وأية لحظة شيطانية قادتنا الى هذا النفق، قالت جميلة وكانها قرات أفكاري:

- لا تندم على شيء فات...

نظرت اليها بدهشة وما زالت احدى يدي ملتصقة بيدها:

- هل انت نادمة..؟

قالت:

- لم افعل ما يدعو الى الندم، ما فعلناه استجابة لرغبات الجسد..احياناً نكون مجبرين على إرواء ضمئنا..

قلت:

- الجسد لا يرتوي بسهولة..

قالت بصوت خفيض:

- حمى الجسد لا تبردها ملامسة عابرة!..

قلت:

- من اين لك هذه الحكمة..؟

قالت:

- من يعش وسط هذه الصحراء يتعلم كل شيء رغم انها لا تلبي كثيرا من الرغبات..

اكاد اسمع صراخ جسدها مثلما اسمع نباح مبتور،دنوت منها فالتصقت بي ، احتضنتها بقوة، قالت بجنون:

- خذني إليك، لاسمع صهيلك، كل تضاريس جسدي تحتاج ماءك ، ضمني أيها المبتلى بجنوني...

كان صوتها يأتيني مثل مخدرٍ من أعماقها، لعنت العسكرية والحرب تلك التي وضعت غرائزها في صناديق مقفلة وحولتها الى مكائن لحصد الأرواح وحطب لموقدٍ كبير يمتد من اقصى الشمال الى أدنى الجنوب، هذه الذائبة تحت رحمة غريزتها تبحث عن خلاص أمة من موت شامل، لما يزل مبتور بالقرب منا يشهد تموجات جسدينا وخوار صاحبته.. استسلم هو الاخر ولم اعد اسمع نباحه فيما تحول جمر الموقد الى رماد نثرته الريح فوق جسدينا.

(11)

نهار جديد ملبد بغيوم رمادية، وصوت رعد تهتز له أعمدة الخيمة، رائحة القهوة تخترق خرقة الصوف التي تغطيني سمعت صوت الشيخ وهو يقول:

– ما شاء الله، المطر قادم..

ردت عليه جميلة بصوت متعب:

– لا اعتقد انني قادرة على الرعي..

أجابها الشيخ:

– لدى الخراف ما يكفيها هذا اليوم..

رفعت راسي في اللحظة التي خرج الشيخ فيها من الخيمة، رايت جميلة واقفة، قلت لها:

– هل ستمطر..؟

التفتت نحوي باسمة:

– السماء ملبدة بغيوم ماطرة..

– هذا يعني انك لن تخرجي اليوم للرعي..

هزت راسها وقالت:

– سأبقى معك..

نهضت ولمحت الشيخ وهو يقف عند مشبك الماشية، قلت وانا اقف قريبا منها:

– اتتركينه يعمل لوحده..

– يرغب في ان يعمل كل شيء بنفسه، هو يقول اذا جلست بلا عمل أموت..

قلت:

– من الصعب ان يجد المرء نفسه بلا عمل..

– العمل موجود في كل مكان وما على المرء الا البحث عنه...

كلما استمعت الى جميلة ازددت دهشة، ما تتفوه به لم اسمعه من مثيلاتها في المدينة، خرجت من الخيمة في اللحظة التي بدا فيها المطر ينزل خفيفا، اتجهت نحو الشيخ المشغول بوضع ما يمنع المطر من تبليل الأغنام، قلت له:

– دعني اساعدك..

التفت لي وقال:

– ارجع الى الخيمة صحتك لا تساعدك على العمل..

لم استطع إقناعه فرجعت الى الخيمة، كانت جميلة تنظف المكان، التفتت نحوي وقالت:

– نظفت مكانك، تستطيع ان تجلس، واشارت الى الزاوية القريبة مني، جلست ورحت أتاملها وهي ترتب الفراش، قلت لها:

– رغبتي في البقاء معكم اكبر من رغبتي في الاستمرار بالرحلة..

قالت دون ان تلتفت لي:

– ما دام هناك اناس ينتظرونك اكمل مشوارك وحين تنتهي ستجدني بانتظارك..

قلت:

– ربما تغادران المكان..

قالت:

– لن نغادره قبل حلول الصيف..

بدأت الخيمة ترتج بفعل المطر، وضعت جميلة خرقة على رأسها وخرجت من الخيمة، راقبتها من خلال الشق وهي تحاول التأكد من حبال الخيمة، المطر ينزل بكثافة والخيمة ترتج كأني في سفينة اطلقت شراعها، تذكرت في تلك اللحظة النوخذة معتوق وهو يحدثني عن رحلاته البحرية في عمق الخليج، يومها لم يعد معتوق نوخذة بعدما سقطت عليه سارية السفينة في ليلة عاصفة، كانت تلك آخر رحلاته، قال لي: حين يهدأ البحر ويدب في جوفه السكون نعرف ان عاصفة آتية، حذرت الصيادين وطلبت منهم

ان يلتصقوا ببعضهم الا ان قوة العاصفة كسرت السارية واخذت معها عدداً منهم بعدما كسرت ساقيّ..

تشبثت بعمود الخيمة وأنا استعيد حكاية النوخذة معتوق الذي استطاع ان ينجو باعجوبة بعدما قذفته الأمواج بعيداً عن سفينته التي غارت في اسفل، قال لي انه عاد على ظهر سفينة نفط ماليزية بعد ان تم انقاذه وعلاجه، انزل في ميناء خور العمية وبقي يومين قبل ان يرحل الى دائرة المخابرات بساقين مكسورتين..

في تلك الدائرة حاولوا الصاق تهمة التجسس لصالح دولة اجنبية به، لم ينقلوه الى المستشفى العام، تركوه يعاني ألما لا يطاق، وبعد شهر جاء اليه من يخبره ان افادته كانت صادقة وان جثث ثلاث من زملائه الصيادين قد سلمتها الحكومة الكويتية الى العراق، خرج النوخذة معتوق من معتقل المخابرات بعد ان وقع تعهدا خطيا يقضي في ان لا يتفوه باية كلمة عما حدث له من لحظة اعتقاله حتى خروجه.

ادخل النوخذة معتوق المستشفى واجريت له عملية لبتر ساقه اليمنى لم تؤلمه مضاعفات العملية قدر ألمه من كبت ما في داخله.. ما رآه في معتقل المخابرات لا بد ان يعرفه الناس لكن ورقة التعهد التي وقعها تخيفه.

ذات ظهيرة زرته، كان يستسلم لاغفاءة ظننت انه لن يصحو منها، اكثر من نصف ساعة مضت وانا اتأمل وجهه المعجون بماء الخليج، أي احلام تراوده الان، لا شك ان البحر بموجه المتلاطم يدور في رأسه، واصوات

مكائن السفن تحفر نفقا في ذاكرته، وعيون الصيادين تبحلق فيه.. ربما هو الان في القاع يبحث عن حورية البحر او لؤلؤة يهديها لحبيبة غائبة.

فتح عينيه وتمتم بكلمات بالكاد سمعتها:

- لم يغدرني صديقي البحر، غدرتني العاصفة !

قلت:

- أنت سيد البحر

- سيد بلا ساق !

قالها وهو يشير الى ساقه المبتورة.. قلت له:

- الذي انجاك في البحر قادر ان يعينك في البر..

هز رأسه موافقا وراح يقص علي بما جرى له في البحر وتلألأت في عينيه دمعة . قال:

- الماليزيون عاملوني بلطف..

قلت له:

- والعراقيون ..؟

قال:

- تلك حكاية طويلة..

حاولت ان استل منه بعض خيوط حكايته التي قال عنها انها طويلة خيطا خيطا وراح يطلق كلماته كأنه يزيح ثقلا عن صدره، تحدث عن كل اساليب التعذيب، حرق وتعليق وكهرباء.. قال مازحا:

- لم ادخن في حياتي لكن جسدي الان يحمل كل سجائر العالم.. كان عليهم ان يطفئوا روحي قبل ان يطفئوا سجائرهم بجسدي.

بعد يومين من لقائي بالنوخذة معتوق جاءني من يخبرني بموته، قال لي "هناك من يقول انه مات مسموما ثمة من دس السم له في طعامه".

حكاية النوخذه هذه انتشرت في المدينة ولكن بسرية تامة، تتناقلها الناس مثل منشور سري، هناك من يقول ان الحكومة قتلته لكن التقرير الطبي يشير الى ان الوفاة حدثت بسبب ارتفاع ضغط الدم !

بعد موت النوخذة معتوق استدعي للتحقيق كل من زاره في المستشفى، كنت اول من استدعي، وحين دخلت غرفة المحقق اجلسني على كرسي قبالته وقال لي:

- ماذا تعرف عنه..؟

اجبته:

- مثلما يعرف هو البحر..

قال:

- لم افهم..

ورحت احدثه عن النوخذة وعلاقته بالبحر والناس الا ان المحقق باغتني بالسؤال:

- هل اخبرك بشيء وانت تزوره في المستشفى..؟

قلت:

- نعم أخبرني...

فتح المحقق عينيه وكأنه اكتشف شيئا.. قلت:

- قال لي، انه يشتاق للبحر.. يرغب في ان يعود اليه..

امتعض المحقق وقال وهو يشعل سيجارته:

- ليس هذا ما اردت معرفته..

قلت:

- هذا كل ما جرى من حديث..

رمقني بنظرة شك ورمى لي بورقة وقال:

- وقع هنا، وقبل ان تخرج احذرك ومن معك، اياكم والاشاعات..

غادرت المكان وكلمات النوخذة معتوق ترن في رأسي "حكايتي ستسبب المشاكل للناس".

....

صوت رعد قوي قطع سيل ذاكرتي وأعادني الى الخيمة، عادت جميلة، علقت الخرقة التي لم تحمها من المطر في حبل ربطته ما بين العمود وجدار الخيمة..

قلت:

- يبدو ان المطر لن يتوقف..

قالت:

- ما يفرح البدوي هو المطر..

قلت مازحاً:

- لكننا في المدينة لا نفرح به، فهو يغرق البيوت والشوارع ..

قالت:

- كل ما ياتي من الله هو خير..

دخل الشيخ الخيمة، خلع عنه كيس النايلون ووضعه جانباً، تمتم ببضع كلمات عرفت منها انه يشكر الله على نعمة المطر..

نباح مبتور يصلنا ممزوجا باصوات الرعد وخرير المطر.

قالت جميلة:

- ربما هو جائع..

أجابها الشيخ:

- وضعت له ما يكفيه لهذا اليوم..

جلس الشيخ وجلست قريبا منه بينما بدأت جميلة تعد الموقد لطبخ الغداء..

قال الشيخ:

- ما الذي جاء بكم الى هذا المكان النائي..؟

قلت:

- أوامر عسكرية..

قال:

- أنت جندي وليس شرطي حدود..
- واجبنا هو زرع الالغام..
- الألغام..؟!

- لنعيق غزو قادم..

قال مندهشاً:

- هل ستغزونا المملكة..؟

قلت:

- ليست السعودية أنما أمريكا..

ضحك الشيخ وعرفت أن اجابتي لم تقنعه.. قال:

- وما الذي يجبر الامريكان على المجيء..

- مصالحهم..

قالت جميلة وهي تضع قدراً على النار:

- ما هي أمريكا..؟ لم اسمع بقبيلة اسمها امريكا..!

ابتسمت قائلا:

- امريكا دولة، مثل العراق تماما والمملكة، وهي بعيدة عنا جدا، يفصلنا عنها بحر واسع وصحارى لكن لديها جيش قادر على الوصول الى اية بقعة في الارض.. ألم تسمعا ان امريكا اخرجت قواتنا من الكويت..؟

قال الشيخ:

- سمعت ذلك ولكن منذ زمن بعيد...

قلت:

- حربنا القادمة ستكون مع امريكا..

قال الشيخ:

- حرب أخرى..؟ ألا تشبع الحكومة من الحروب..؟

قالت جميلة ساخرة:

- يبدو ان رزقهم على الحروب..!

قال الشيخ:

- يسترزقون بدماء الابرياء، الفقراء، لم يقتل في حروبهم الا الجنود المساكين..

قلت للشيخ:

- لم لا ارى مذياعا في الخيمة...؟

قال:

- لا نحتاجه.. كل عالمي هو الخيمة وهذا الفضاء الواسع، عالم بسيط لكنه آمن، لا يشغلنا فيه شيء..

لم اجبه، واكتفيت بالنظر اليه وهو يمسح بعض خصلات شعره الطويل فيما راحت جميلة تنفخ على النار التي ما زالت تقاوم البرد.

(12)

قبل حلول المساء، توقف المطر، الا ان الريح الشمالية لم تتوقف، ريح باردة حولت المكان الى علبة تجميد كبيرة، الغيوم التي كانت تغطي السماء طيلة النهار انقشعت، لم يبق منها سوى قطع متناثرة، اوقدت جميلة نارا خارج الخيمة، هي تفعل هذا كل مساء منذ ان حللت بينهم، تغريني النار بدفئها وتغريني جميلة بقوامها، خرجت من الخيمة تاركا الشيخ ينعم باغفاءة قد تزيح عنه تعب ما انجزه اليوم تحت خيمة المطر، النار في الخارج تأكل الحشائش الرطبة، اسمع صوت الحشائش وهي تئن تحت ضلع النار، واشعر بالتواءاتها وهي تتمرغ بخيوط اللهب، واتخيلها وهي تتراقص على ايقاع الدخان الذي تحمله الريح بعيدا.. تقترب الشمس من الافق، وتكاد تلتصق به، كرة برتقالية كبيرة، نشرت لونها في مكان غير بعيد، لونت بقايا الغيوم المتناثرة.

وضعت جميلة بعض الحشائش في النار التي بدأت تخبو، دخان كثيف أبيض يغطي المكان يخفي تحت طياته جسد جميلة، وقفت طويلا أتأمل المشهد.. وسمعت صوتها يأتيني من خلف الدخان:

- في الشتاء نحتاجها، وفي الصيف نهرب منها..!

قلت:

- النار..؟

اجابت ضاحكة:

- وهل هناك غيرها..؟ واشارت بيدها التي ما زالت تمسك فيها كومة من الحشائش، " تعال اقترب منها..".

دنوت ببطء، وسط غيمة الدخان، لا يفصلني عن جميلة سوى مائدة النار، ودخان تأخذه الريح بعيدا..

قالت لي:

- ماذا عن عائلتك.. حدثني عنها، اشعر ان هناك من ينتظر عودتك..

قلت:

- ام تنتظر ولا احد سواها..

قالت:

- وزوجتك..؟

ابتسمت لها وانا ازيح بعض الحشائش التي تطايرت بفعل الريح عن قدمي.. قلت:

- لا زوجة لي...

قالت وهي تحرك كومة الحشائش بعصا اكلت رأسها النار:

- ما الذي أخّرك عن الزواج..؟

- الحروب، ما ان تنتهي حرب حتى تبدأ حرب اخرى..

قالت باسمة:

- الحرب لا تؤخر زواجا..

- لا اريد ان اكون سببا في ترمل امرأة..

- الاعمار بيد الله..

- وبيد البشر ايضاً..

تمتمت بكلمات عرفت انها تستغفر الله لما سمعته من كلمات مني.. قلت لها:

- الحروب تأكل الرجال وتترك غصة في قلوب النساء..

- لكنك نجوت..

- ومن يدري، هل انجو في المرة المقبلة..

انزوت الشمس لكن ألوانها ما زالت تلون خط الافق، لملمت جميلة بعض الرماد ووضعته في ماعون ..

نظرت لي وقالت:

- كل شيء هنا له نفع حتى هذا الرماد..

قلت:

- ما نفع الشيء اذا صار رماداً..!

قالت:

- **نميت الجرح به..**
- **الرماد نار ميتة..**

ضحكت ثم قالت:

- **نميت الجرح بالميت..!**

ضحكت وانا منبهر بفطنتها وانفتح امامي أفق لم أدركه إلا بنغمة لها لذة تلك الصحراء.

(13)

في تلك الليلة، زاريني النوخذة معتوق، جاءني بساق تحولت الى سارية سفينة تنز دما تمتد باتجاه الخليج الذي ابتلع بحارته، وقف امامي صامتا، برأسه الحليق وعينيه الدامعتين، حدق بالمكان مثل من يبحث عن شيء، اشار باصبعه الى خزانة قديمة مركونة في زاوية الغرفة تنبعث من خشبها الساج رائحة لم اشم مثلها من قبل وثمة مفتاح كبير علق في احد جوانبها.. اومأ لي ان افتحها، ترددت قليلا، الا ان الحاحه جعلني اسرع في مد يدي حيث المفتاح الصدئ وسرت بي قشعريرة اختض لها جسدي..

عيناه تحدقان بي، واصابعي تفشل في وضع المفتاح في الشق العمودي الذي يخفي خلفه اشياء لم استطع التكهن بها.. مرة اخرى حاولت ولم استطع ادخاله الا في الثالثة، ادرت المفتاح ببطء، نصف دورة شعرت خلالها اني احرك زمنا توقف لحظة موت النوخذة. لا اعرف كم من الوقت مضى وانا ارفع غطاء الخزانة الخشبي لكني اعرف ان النوخذة ما زال واقفا امامي بساقه السارية. فتحته، وانسلت منه وجوه لم أرها في حياتي، وجوه من دخان ابيض سرعان ما يتلاشون في فضاء الغرفة..

قال النوخذة:

- دعهم يخرجون بسلام..

قلت:

- من هم..؟

قال:

- تلك ايامي ..

انتابني شعور ان الرجل قد فقد عقله او هكذا يبدو وسيفقدني عقلي ايضا اذا ما تبعته.. أية ايام تلك التي يخبئها في الخزانة، هل يمكن ان نخبئ ايامنا مثلما نخبئ حاجياتنا... بعض تساؤلات قد يفك أسرارها النوخذة وكان لابد من ان اسأله عنها، نظرت اليه وانا ألملم اسئلتي لاطلقها في وجهه الا انه تلاشى امامي مثلما تلاشت تلك الوجوه، تركني حائرا، باحثا عن مفتاح للسر الذي أراني إيّاه..اغلقت الخزانة وكأني أغلق عالم النوخذة معتوق الذي غادرنا دون عودة.

أيقظني الشيخ في اللحظة التي سحبت فيها المفتاح من الشق. قال لي: "حان وقت صلاة الفجر". نهضت متثاقلا بعدما ازحت عني غطاء الصوف الثقيل ولامستني برودة الخيمة..

الشمس توشك ان تخرج من قمقمها لتبدد صقيع الليل الذي غطى الخيمة، دنوت من النار التي أوقدها الشيخ وراح يصلي على ضوئها، وقفت الى جانبه بجسد يرتجف اثر البرد الذي بدأ يوخز دبابيسه ببدني.. صليت في هذا الفضاء الفسيح، لا شيء أمامي سوى رمال تمتد في اخريات العتمة، سماء احتفظت بنجمة فضية هي ما بقي من الليل، وغيوم بيضاء متناثرة، مع سجود الشيخ سمعت نحيبه، لم أسمع نحيبا في حياتي مثله، أطال السجود وحين سجدت رمقته بعيني ووجدت الدموع قد غسلت لحيته، أي بكاء هذا وأي خشوع، ندمت كثيرا لحظتها على الايام التي فاتت دون ان أصلي، لا أعرف كيف سرى بي الندم واخذني لأيام المدرسة حين اعتقل رجال الأمن مدرس الإسلامية وعرفنا بعد ايام انه اعتقل لانتمائه لحركة دينية مثلما اعتقل مدرس التاريخ لشيوعيته.. ربما كان ذلك سببا أبعدني عن الصلاة..(ياه عذر أقبح من فعل) هذا ما رددته مع نفسي وانا انهي التشهد الأخير من صلاتي..

حين انهى الشيخ صلاته وتسبيحاته جلس متأملا النار التي بدأت تأكل ما بقي من حشائش، جلست قبالته، راودتني فكرة ان أسأله عن سبب بكائه الا اني توقفت في اللحظة الاخيرة، لم أر الشيخ طيلة مكوثي معه بهذا الحال، صمته اشغلني حتى اني نسيت دبابيس البرد..

خرجت جميلة من الخيمة، قبلت والدها، وابتسمت لي، لم تقل كلمة وكأنهما اتفقا على الصمت.. نباح مبتور يأتي من خلف الخيمة، لا صوت هنا الا نباح مبتور خلته يريد ان يقول شيئاً، نباحه المتكرر اشعرني بأنه يعرف ما يخفيه الشيخ.. ليتني اعرف لغة الكلاب لأعرف ما يدور هنا.. نهض الشيخ وتبعته نظراتي، اتجه صوب قطعان الماشية التي بدأت تخرج من مكانها منتشية بعد ليلة المطر في الوقت الذي شدّت جميلة سرج الحمار، تذكرت مدرسنا الشيوعي الذي كان يردد مثلا يقول: (السرج المذهب لا يجعل من الحمار حصانا ولا من الجحش أميراً) وعندما سألناه عن الفرق ما بين الحمار والجحش قال ضاحكا: (كلاهما مغضوب عليه !).. الحمار الذي روضته جميلة وعلمته ما عليه ان يقوم به في هذه الصحراء يختلف كثيرا عن حمير المدينة والتي ليس لديها القدرة على التحمل، هذا ما قالته لي جميلة ذات يوم وانا أسألها عنه.

عند الظهيرة، أخرجت بندقيتي وقمت بتفكيكها ونظفتها بقطعة القماش التي شدت جميلة بها ساقي يوم الحادث، لم اشعر بوقوفها امامي الا بعد ان سمعتها تسألني:

- ألم تفكر بالبقاء..؟

نظرت اليها وانا أعيد ترباس البندقية الى مكانه وقلت:

- لا بد من الرحيل، تأخرت كثيراً..
- ومتى سترحل..؟
- فجر الغد..

اكتفت جميلة بالنظر الي وانزوت داخل الخيمة بينما انشغلت باكمال تركيب أجزاء البندقية.. من داخل الخيمة سمعت نحيبها، يشبه نحيب الشيخ الذي سمعته فجر اليوم، لا أعرف ما الذي يجري في هذه البقعة الصغيرة من الصحراء المترامية الأطراف، قلت مع نفسي: "لا اعتقد ان رحيلي سيسبب لهما الألم ربما هناك أمر آخر".. حاولت ان احدث صوتا في تحريكي لاقسام البندقية التي بان بعض الصدأ في ماسورتها، اردت ان اوقف نحيب جميلة الذي راح يؤذيني، كل شهقة منها تشعرني بذنبي، هذه الكتلة الرقيقة الحالمة ما الذي جاء بها الى هذا المكان، أما كان من الأجدر ان يلقيها القدر في بيت بجدران وأبواب وشبابيك تعيش حياتها دون تعب او خوف، احيانا لا نرى بداً من ان نعيش فيما كتبه لنا القدر رغما عن انوفنا الا اننا نرضى فيما نحن فيه ان وجدنا قدر غيرنا اتعس منا، ما الذي تعرفه جميلة عن نساء المدينة وهي لم تر في حياتها واحدة، ما سمعته منها انها تستطيع ان تحزر ما هي عليه نساء المدينة، ربما سمعت عنهن حكايات من بدويات التقت بهن خلال انتقالها من مكان الى اخر طلبا للعشب والماء..

من بعيد نادى الشيخ جميلة فخرجت مسرعة من الخيمة حاملة معها قربة ماء صغيرة ، تابعتها وهي تركض باتجاه قطعان الماشية، رأيت الشيخ وهو يكلمها، هزت جميلة رأسها وتابعت سيرها خلف الحمار والماشية فيما راح مبتور يدور حولها هازا ذيله..

عاد الشيخ الى الخيمة، كنت اظنه سيحدثني عما يشغله لكنه لم يفعل، فضول عظيم يجبرني في ان أعرف منه ما يدور حولي، نهضت من مكاني حاملا معي بندقيتي التي انتهيت من تفحصها، دخلت الخيمة فرمقني الشيخ بنظرة كادت ان تفترسني، جلست ووضعت البندقية جانباً واخرجت كيسا كنت قد وضعت فيه بعض حاجياتي داخل حقيبة الجلد السوداء، قال الشيخ:

- من الصعب ان تفارقنا..!

قلت:

- هذا ما يشغلك..؟

قال:

- وجودك اشعرني بان ولدي معي..

قلت:

- اطمئن يا شيخ ساعود.. وساترك لك عنواني ربما تزورني في المدينة..

- لكنك قلت ستعود..

- لا اعرف ما الذي يجري في المدينة، ربما هناك ما يؤخرني عن العودة..

اقترب الشيخ مني وقال هامساً:

- اذا رغبت في البقاء ابق، هنا لا احد يجدك..

- سيعدمونني ..

- لن يصلوا اليك، سننتقل الى مكان ابعد من هذا..
- الحرب على الابواب...
- دع حربهم لهم واختر حياتك...
- هناك من قطعت له عهدا بمساعدته..

توقف الشيخ عن الكلام وهز رأسه راضياً بما اخبرته..قلت له:

- لا تشغل بالك، الحرب ستكون سريعة هذه المرة، ليس لدينا القدرة على رد الامريكان، جنودنا في حالة يرثى لها وطائراتنا لا تطير..
- الحافظ هو الله..

قلت له وانا اتابع جميلة وهي تراقب الماشية:

- اخبرها ان لا تبتعد..

قال الشيخ:

– لن تبتعد، الماشية بحاجة الى الشمس..

اخترقت السماء طائرة مقاتلة هز صوتها أركان الخيمة، نهضت مسرعا باتجاه الخارج، صاح الشيخ بي:

- عد يا ولدي، لن تلحق بها...!

التفت اليه ووجدت ابتسامة قد رسمت في وجهه الحامل ضيم سنوات مضت.. ابتسمت له وقلت:

- يبدو انهم استعجلوا الحرب...

قال الشيخ:

- في العجلة الندامة..

قلت:

- وربما السلامة..

بدأت أسراب الطائرات تروح وتجيء، اعداد كبيرة، تأتي من الغرب متجهة حيث العمق العراقي، لم اسمع هنا في هذه الصحراء الا ازيز الطائرات، فكرت بمن تركتهم خلفي، ماذا لو بدأت الحرب حقا دون ان آتي لهم بالنجدة، ماذا سيقولون عني وهم الذين وثقوا بي، هل اخذلهم..؟

بحثت في الكيس الذي ما زال امامي، واخرجت رسالة العريف قاسم وتذكرت آخر كلماته: (هذه وصيتي خذها معك، لا تفتحها الا بعد ان تضع الحرب أوزارها).. لا ادري متى تخبو نار الحرب ان اشتعلت لكنها وكما قال العريف انها ستكون سريعة وخاطفة، هو يعرف اكثر مني ملامح الحروب فقد شهد اغلبها، ربما يكون هو الناجي الوحيد من تلك الحروب والشاهد عليها.. هي ذي الطائرات تحلق في سمائنا، لا ادري كم طائرة دخلت الاجواء والى اين تمضي، على اية مدينة ستلقي حممها، كم من الناس سيموتون في هذه الحرب، اشعر اننا خلقنا للحرب، سنوات طويلة ونحن نعيش في مرجل لا ينطفئ، لا ادري لم كل هذه الحروب، تلك النزعة الهتلرية التي تريد ان تتحكم بالاخرين لم تنقطع عن الرئيس وعن المحيطين به من الخط الاول، وبالرغم من كل ذلك لم نتذوق طعم النصر، اي طعم هذا الذي ننتظره ونحن نفقد الابناء واحدا تلو الاخر.. هذه الحرب الخاسرة، كما يصفها العريف قاسم، هل ستكون النهاية.. واذا ما خسرناها هل سنعيد ما كان هتلر يروج له ابان الحرب العالمية الاولى

مبررا هزيمته بانها طعنة في الظهر وان الجيش الألماني لم يهزم عسكريا بل تمت خيانته من الداخل، هل هذا ما سيحدث لنا..؟ وتبدأ حملات تصفية الناس من جديد، هذا هو حالنا، منذ زمن، والنائحات يملأن البيوت، اني لاشعر ان الرحمة غابت عن القلوب وان مرحلة حاسمة ستكون بانتظارنا فيما لو نجحنا بعبور هذه الحرب.. في الحرب الماضية مات آلاف الجنود في طريق الموت الممتدة من المطلاع حتى مدخل مدينة البصرة، وكانت صور العربات المحترقة بالجنود تنتشر في كل وسائل الاعلام، طريق مليئة بالحديد المنصهر والاجساد المتفحمة.. ذات يوم قال لي العريف قاسم ان قرار الانسحاب من الكويت كان قد اتخذته القيادة بسرية تامة قبل بدء الحرب التي اطلق عليها اسم "عاصفة الصحراء" ، تم تبليغ الضباط الامرين ولم يبلغ به الجنود، غادر الضباط ثكناتهم في الكويت ليلا وبقي الجنود في مواجهة الموت، اعداد كبيرة وقعوا في الأسر، واخرون قتلوا.. للآن اتذكر الدبابات والصواريخ وقد اخفيت في ازقة مناطق البصرة بين البيوت، خطة غبية تلك التي جعلت من البيوت الامنة دروعا للآلات الحربية، الاطفال راحوا يلعبون فوق الحديد الذي اتعبته الحروب، وربما هناك من تبول فوق حديدها الصدئ، فيما غادر الجنود مشيا على الاقدام الى أهليهم في مختلف المحافظات بعدما قصفت طائرات قوات التحالف الجسور.. مدينة البصرة كانت تغلي، واحاديث الناس لم تنقطع في وضع حد لآلة الموت التي التهمت الشباب.. في تلك الفترة كانت الاحتياطات قد اتخذت في المدينة من قبل الحكومة وفرضت عليها حظرا بواسطة افواج من افراد الحزب الذين ملأوا الشوارع، الا ان ذلك لم يمنع

الشباب من ان يخرجوا ذات فجر من بيوت امتلأت قهرا، هجموا على الفرق الحزبية واحرقوها واحكموا سيطرتهم على المدينة باكملها، الحراك بدأ من مناطق أكلها القهر، ربما هناك من حدد ساعة الصفر، الا ان ذلك لم يؤكده اي من الخارجين الى الشوارع بصدور عارية ووجوه مكشوفة، لحظة واحدة جمعت شمال المدينة بجنوبها، نساء بعباءات رمادية بعدما امتصت الشمس سوادها، تركوا كل آلامهم في بيوت انفجرت غضباً، المدينة خلت من كل شيء سوى تلك الاقدام الراكضة هنا وهناك، وثمة من رأى في تلك الفوضى فرصة لما اطلقوا عليه فيما بعد بالفرهود.. مؤسسات حكومية اقتحمها أناس من مناطق مختلفة، فيما اشعل آخرون النار في المقار الحزبية، لم تبق صورة للرئيس دون ان تحطمها الايدي، صور مختلفة بملابس عسكرية ومدنية، وهناك من راح يكتب شعارات على الجدران، شعارات يمكن ان تكون مفتاحاً لمستقبل غامض، الا ان كل ذلك ذهب مع الريح، هناك من قال ان امريكا هي التي وقفت مع النظام لافشال انتفاضتهم، وهناك من قال ينقصها التنظيم والقيادة، آنذاك شنت الحكومة حملة كبيرة لتدمير ما بقي في المدينة.

بدأت اسراب الطائرات تزداد كثافة، صوتها المدوي يفض بكارة الصحراء، عادت جميلة ومعها الماشية التي بالكاد تستطيع السيطرة عليها بينما بدا مبتور مفزوعا من الأصوات المخيفة.. ركض الشيخ باتجاهها وفتح الزريبة وبدأت جميلة تهش الماشية حتى ادخلتها فيها.. قالت وهي تنظر نحوي وكأنها ترغب في اجابة مني:

- ما الذي يجري ..؟

اجابها الشيخ من داخل الزريبة:

- **يبدو انهم فعلوها..**
- **هل بدأت الحرب..؟**

اجبتها وانا احدق بخيوط الدخان التي شكلت والغيوم المتناثرة لوحة طباشيرية كالتي يرسمها الصغار في سبورة الصف:

- **يبدو ذلك.**

(14)

كان ليل الصحراء غريباً، بدد صفاءه وسكونه لهب النار المتجهة نحو الشمال، كنت قد وقفت ازاء الموقد الذي امتلأ رماداً، انظر في السماء وذلك اللهب السائر بسرعة كبيرة، اعداد كبيرة من الصواريخ يتبعها صوت افزع مبتور الذي ظل يدور حول الخيمة، وقف الشيخ بمحاذاتي، قال:

- ما اسم تلك القنابل..؟
- لا اعرف لكن يبدو انها قنابل ذكية..

قال الشيخ مستغرباً:

- قنابل ذكية..؟!
- ذاتية التوجيه، مصممة بدقة لتزيد الضرر بالهدف..

يبدو ان الشيخ لم يفهم ما اقوله فاكتفى بمتابعة كرات اللهب، التفت نحوه وقلت:

- قواتنا تستخدم صواريخ سكود..

قال الشيخ:

- أبعدنا الله عنها وعن من يستخدمها..
- كأنها غضب الله علينا..
- استغفر ربك، فالله لا يغضب من عبده الا اذا ارتكب الكبائر..

قلت له وانا احدق بكرات اللهب المتتالية:

- وما ارتكبناه بحق بعضنا الا يعد من الكبائر..؟

لم يقل شيئاً، توقف برهة ثم اتجه نحو المكان الذي اتخذه زريبة لاغنامه، تبعته وانا اردد ما سمعته من امي"ما يغضب الله هو قتل النفس" كم من الانفس راحت ضحية نزعات شخصية تم تعميمها على وطن لم يستطع ان يرفضها، تقبلها على مضض ودفع ثمنا غاليا.. كم من الناس غابوا في الحملات المحمومة لتخليص البلد من التبعيات الاجنبية، هكذا كانوا يسمونها، فهذا تبعية فارسية وذاك تبعية هندية وباكستانية، جارنا ابو ابراهيم تم تسفيره الى باكستان دون ان يسمحوا له باخذ اغراضه لكنهم تركوا ابنه ابراهيم يكمل الجندية ليصاب بعد ذلك بجروح خلال مشاركته بمعركة سربيل زهاب، طردوه هو الاخر ولم تشفع له جروحه.. قبل رحيله زرته في المستشفى العسكري قال لي:

- الحمد لله لم امت دون ان ارى اهلي..
- ستبقى معنا يا ابراهيم نحن اهلك..
- من يسمح لي بالبقاء بعد ان طردوا اهلي..
- جروحك تكفي لان تبقيك معنا..

قال وهو يتحسس جرحا غائرا في كتفه:

- لو كان ذلك لابقوا عائلات قتلى الحرب في بلدهم..

ندمت كثيرا لاني لم اودعه قبل تسفيره لانهم ألقوا به عند الحدود بعد يومين من لقائي به..

كانت الليلة الاخيرة لي في هذه الخيمة مؤلمة جدا، المكان الذي عشت فيه اياما يكاد ان يشدني اليه، ترددت كثيرا في ان تكون هذه الليلة هي الاخيرة لي، لكني حين اتذكر زملائي الذين تركتهم عند الحدود تمحو كل تردد لي، هكذا عشت ليلة بين نارين، فالرجل الذي آواني في هذه الصحراء صار قريبا مني، وجميلة التي عشت معها بعد ان انقذت حياتي وزملائي الجنود الذين ينتظرون ان آتي بالمساعدة لهم، كل هذا جعلني اترنح هنا وهناك وأفقد التركيز، سماء الصحراء تلونها لهب الصواريخ التي راحت تكسر هدوءها، حتى مبتور لم اعد اسمع نباحه، والشيخ الذي انتهى قبل قليل من تفقد خرافه انزوى في الخيمة.

- ما الذي يجري بحق السماء..!

رددتها مع نفسي وانا انظر الى السماء الملتهبة، ومن داخل الخيمة سمعت الشيخ وهو يناديني: (امامك طريق طويل يا ولدي، اعط جسدك بعض الراحة).. تحسست ساعتي واستسلمت لطلب الشيخ، دخلت الخيمة، كانت جميلة تعد حقيبتي، تلك الحقيبة التي حملت بداخلها كل ايام عمري، نظرت لي قائلة:

- وضعت كل ما تحتاج له في الطريق.. وبدلتك العسكرية ايضا..

قال الشيخ:

- لا حاجة له بملابسه العسكرية.. سيذهب بالدشداشة وهي اكثر امنا له..
- حسنا سأرتدي الدشداشة، وساحتفظ بها ذكرى منكما..

قالت جميلة:

- ستصل سالما باذن الله.

سلّمتها ورقة كتبت فيها عنوان منزلي وقلت لها:

- هذا هو عنواني، سانتظرك..

مدت يدها نحوي وأمسكت الورقة بيد ومدت يدها الأخرى وقدمت لي قطعة قماش صغيرة قائلة:

- خذ هذه ستحفظك في الطريق..
- ما هذه..؟
- تميمة كنت احفظها من امي قالت لي ذات يوم اعطيها لمن هو في محنة ولا اجد احدا في محنة اكثر منك..

ضحك الشيخ حتى اغرورقت عيناه بالدموع وقال:

- كم محنة مرت علي ولم تعطيني اياها....
- كنت أحملها أنا معك !

ضحكنا، حتى ظننت أن أصواتنا إصطدمت بالأجساد الغريبة التي يدفعها اللهب.

(15)

الفجر بدا هادئا بعد ليلة صاخبة غفوت خلالها ساعة أو ساعتين، كان هاجس المقبل من الساعات يؤرقني، هل سأصل في الوقت المناسب، كم من الوقت بقي ليستطيع ان يتحمله الجنود الذين تركتهم خلفي.. أسئلة كثيرة وإجابات خبأها القدر.. وقفت أمام الخيمة أتأمل البعيد، في أي إتجاه تقبع تلك المدينة القاسية، السلمان، أتذكر حين مررنا بها كان الوقت ليلا، لم أر منها سوى شارع ترابي نفخت سيارة الإيفا ترابه علينا وهي تأخذنا حيث الصحراء، بيوت غطاها الظلام وملأتها الكلاب نباحا، وحين أراد أحد الجنود ان يتبول لم يلب العريف قاسم طلبه وقال له (بل في مكانك..) ضحكنا جميعا

فيما كان الجندي يتألم ومثانته تنتفخ. الطريق المتعرجة تأخذنا بعيدا، ودخان سجائر الجنود استنشقها مع الغبار الذي راح يباغتنا من ثقوب غطاء الايفا.

كنت أسمع عن السلمان، وكانت النسوة في محلتنا يتحدثن عن أزواجهن الذين غابوا في نقرة السلمان، كنت أتساءل حينها، أية نقرة تلك التي تستوعب أعداد البشر، هل تشبه مثلث برمودا الذي قرأت عنه كتاباً اخافني، الكتاب يسرد أساطير لا يستوعبها عقل، فهناك طائرات وسفن ابتلعها برمودا، هل نقرة السلمان تبتلع الناس مثله..؟ لم أسأل أحداً من الجنود الذين كانوا معي في سيارة الإيفا خشية أن يتهمونني بارتباطي بالشيوعية، فكثير من الذين تحدثت عنهم النسوة كانوا من الشيوعيين، كنت أعرف أحدهم، يكبرني سناً ألا أني كنت ألتقيه في مكتبة المدينة العامة، في لقائنا الأول حفزني أن أقرأ رواية الأم لمكسيم غوركي، كان قد جلبها معه بعدما أخفاها بكيس ورقي، قال عنها أنها رائعة، فيما راح يحدثني عن أبطالها، لم يقل لي أنه شيوعي إلا ان أفكاره تشير الى ذلك، كان واحداً من الذين اقتيدوا الى نقرة السلمان، فحكايته صارت على لسان جميع من يرتاد المكتبة العامة.. فيما بقيت أحتفظ بالرواية التي أهداها لي بعيداً عن الأنظار.

وقفت أمام الخيمة، وباغتتني لسعات ريح الفجر الباردة، شعرت بالشيخ وجميلة وهما يقفان خلفي، كانت تحمل بيدها ماعوناً ملأته ماء فيما حملت في اليد الاخرى حقيبتي، كانت لحظة الوداع قاسية، فالأيام القليلة التي عشتها معهما لا يمكن نسيانها، أعطتني جميلة الحقيبة التي وضعت فيها بعض حاجياتي، فيما سلمني الشيخ البندقية واحتضنني بقوة وهو يقول:

- كـن يقظـاً ولا تسـترح في مكـان دون أن تتأكـد منـه فالافـاعي والعقارب في كل مكان من هذه الصحراء..

هـززت رأسـي وانا ألتفـت الى جميلـة وهـي تمسـح دمعـة شـاهدتها تنزلـق مـن عينيها.. قلت للشيخ:

– إطمئن سأصل سالماً بإذن الله لا أحتاج إلا لدعواتكما..

مع أول خطوة خطوتها نحو المجهول شعرت أني أغادر حلماً جميلاً، واودع عالماً قـادتني الصـدفة اليـه فتغلغـل باعمـاقي، ايام وليـال قضـيتها في هـذا الفضـاء الواسع، الرقعة الجغرافية التي لا اعرف عنها شيئا، رشت جميلة الماء خلفي، أكاد أسمع نبضات قلبها وهمساتها وهي تودع الغريب الذي بعد لحظات يصير ذكرى لكنهـا لم تكـن ذكـرى عـابرة، يتبعـني مبتـور وهـو يرسـم دائـرة حـولي ثم يلصق جسده بساقيّ، يتقدمني خطوات ثم يعود إليّ يتقافز أمامي، قلت له: "عد الى أهلك فطريقي طويل".. توقف عن الجري، رمقني بنظرة شعرت أنه يودعني، أدرت وجهي حيث الخيمة، لمحت جميلة وهي مازالت واقفة بينما لم أر الشيخ ربما ذهب الى شياهه، لمحت خيط الشمس المثقل بالنعاس ينعكس على بدن الماعون، الوقت يمر، وثمة طائرات تخترق السماء، حاولت ان اتخفى أكثر من مرة بين كثبان الرمل وبعض التلال الممتدة باتجاه المدينة، علمني الشيخ كيف أجعل من الشمس نهاراً ومن النجوم ليلاً بوصلة تهديني الى الطريق الصحيح، ها آنذا أضع الشمس أمامي وأمضي وأدعو الله ان لا تخفيها الغيوم المتناثرة هنا وهناك، إنتصف النهار وراودتني فكرة ان أصلي، كما علمني الشيخ، لا أعرف كيف فكرت بهذا، ربما تذكرت كلام الشيخ وهو يقول لي:

"ستحرسك عين الله في رحلتك، أوعدني ان لا تترك الصلاة فليس لك غير الله في هذه الصحراء الواسعة.." فالمرء في الازمات يحتاج الى الله، وكنا في الحروب السابقة وحينما يشتد القصف نردد ما حفظناه من أمهاتنا أدعية تبعد عنا الشر، أدعية مخلوطة بآيات قرآنية وكلمات لا نعرف معناها إلا أن سر الملائكة الحفظة مخبوء فيها كما قلن لنا.. في هذا المكان الكئيب، المترامي الاطراف أشعر بقرب الله أكثر من أي مكان آخر، هو الآن في السماء ينظر إلي ويجنّد ملائكته لحمايتي ويبعد وحوش الأرض عني.

الساعات تمر، وأقدامي تطوي المسافات، لا اعرف لماذا تذكرت مدرس اللغة العربية الاستاذ ممتاز وهو يردد علينا حكمته المعتادة: "مسيرة ألف ميل تبدأ بخطوة"..متى تنتهي هذه المسيرة، وكيف ستنتهي، أسئلة أرددها مع نفسي لأشغلها بأي شيء كي أصل سالماً وأنقذ من إعتمد عليّ، أحاول أن أسترجع كل شيء جميل مر في حياتي، الا اني لم أجد ضالتي فاكتفيت بقراءة بعض أبيات الشعر التي حفظتها من قبل، ومرت في ذهني قصيدة للملك الضلِّيل امرؤ القيس وهو يصف هذه الصحراء التي أمامي كأنها موج بحر:

وليل كموج البحر أرخى سُدُولَهُ

عليَّ بأنـــواع الهموم ليبتلي

فُقلتُ له لمّا تمــطَّى بصُلْبه

وأردف أعجــازاً وناءَ بَكْلكَل

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألاَ انجلي

بصُبْح وما الإصباحُ منكَ بأَمْثَل

فيا لكَ من ليـــل كأنَّ نجومَهُ

بكُلِّ مُغَــار الفَتْل شُدَّتْ بيذْبُل

كأنَّ الثَّريا عُلِّقَتْ في مَصَامها

بأَمراس كتّان إلـى صُمِّ جَنْدَل

هـذه القصـيدة الـتي أشـبعتني ضـرباً مـن معلـم العربيـة لم أحفظهـا إلا بعـد ان اصبحت تؤرقني وتركت بسببها المدرسة إسبوعاً رحت خلاله أقرأها ليلا ونهاراً دون أن أفـك طلاسـم مفرداتهـا.. تـذكرتها في مسـيري وتـذكرت معهـا قصـيدة للمتنبي يقول فيها:

أَعَزمي طال هذا الليل فانظُرْ

أمنكَ الصُّبْحُ يَفْرَقُ أن يَئُوبا؟

كأنَّ الفـجَر حـبٌّ مُسْـتَزارٌ

يُـرَاعي من دُجُنَّتـه الرقيبا

كأنَّ نجـوَمُه حُلْـيٌ عليـه

وقـد حُذيـتْ قوائمُهُ الجُبُوَبا

كـأنَّ الجوَّ قاسـي ما أُقاسي

فصـار سـوداه فيه شُحُوبا

كـأنَّ دُجَـاهُ يجذبُها سُهَادي

فليس تغيبُ إلا أن يغيـبا

أُقَلِّـبُ فيـه أَجفـاني كأنِّي

أَعُدُّ به على الدهر الذنوبا !..

تلـك القصـائد الـتي فهمـت معانيهـا في وقـت متـأخر لازمتـني في الليـالي الـتي تشعرني بالارق فما بي اليوم اذكرها في نهار بارد، ها آنذا أعد كل الليالي التي مرت والنهارات البطيئة في هذا المسير الذي يبدو أنه سيستمر لأيام..

توقفت لبرهـة، أخرجـت زمزميـة المـاء وبللـت ريقـي، وخمنـت: مـا الـذي تفعلـه جميلـة في هـذا الوقـت، ربمـا هـي الآن تسـرح بشـياهها بينمـا يـدور مبتـور حولهـا

كعادته، تقف تتأمل الفضاء الفسيح وتستذكر الايام التي قضتها معي، أيام مرت سريعاً إلا أن مذاقها ما زال ماثلا.. قطع تفكيري أزيز طائرة حربية إبتعدت وهي تجر شريطاً أبيضاً تقاطع مع اشرطة لطائرات أخرى وغيوم متناثرة رسمت في السماء خرائط تذكرني بشخابيط الأطفال على جدران منزلنا، إلا أن شخابيط الاطفال تدل على براءتهم فيما تلك الشخابيط في السماء تدل على رعونتهم، ماذا لو ترصدتني إحدى تلك الطائرات، لا، لا اعتقد انها تستطيع أن ترصدني من تلك المسافة العالية ربما طائرات الاباتشي تستطيع ذلك لكن تلك الطائرات السريعة لا يمكنها أن تراني بين هذه الكثبان التي تكاد تغطيني.. لا أدري هل هو الخوف ذاك الذي يجرجرني لتلك الافكار المشؤمة أم هو الاحساس بالفراغ... لا تهمني الإجابات الآن، المهم ان أسطر تساؤلاتي التي تصبّرني على هذه المسافة أتذكر الشيخ في الليلة التي سبقت مغادرتي وهو يقول لي: "آه لو كان لدي حصان لكنت قد اختصرت المسافة، لكني لا أمتلك إلا هذا الحمار" .. قال ذلك في الوقت الذي وضعت فيه جميلة صرة بحجم الكف ملأتها بالرماد الذي جمعته في حقيبتي ثم قالت: "قد تضطر لاستخدامه..".

لم يبق من الليل الا ساعات ويغطيني بردائه الموحش لذا كان عليّ أن أصل الى مكان يحميني من الذئاب أو الافاعي، أطلقت ساقيّ للريح وكان بسطالي يغوص في الارض الرملية، من الصعب الركض في منطقة كهذه، وعلى المرء أن يبذل جهدا مضاعفاً كي يدفع نفسه الى أمام، نحن أبناء المناطق السهلية

تعودنا على السير حفاة في الطين.. وارتوت أقدامنا من مياه الأنهر حين كنا نعود الى بيوتنا تبدو أصابعنا منتفخة وجلودنا نيئة وآذاننا مسدودة فرط الماء الذي كنا نغوص فيه، نلبس الدشاديش الرطبة حتى تنشف على أجسادنا، لا نأبه للزكام أو الملاريا التي أخذت منا أصدقاءنا، المهم أننا نقضي أوقاتنا مع النهر، كنت واحداً من أصدقاء النهر، واشعر أن اليوم الذي لا أزوره فيه سيزوريني هو في منامي، كل أحلامي مرتبطة بالنهر ومائه وأسماكه وطينه وقهقهات الصغار وهم يتزحلقون من أعلى كتف النهر الى قعره.. ليتني الآن ألقي بجسدي في النهر وأتخلص من الساعات الآتية، تحسست التعويذة التي أعطتني إياها جميلة، قالت أنها ستحميني وستوصلني الى المدينة سالماً..

من بعيد، شاهدت شجرة كبيرة، بدأت تظهر بوضوح خلف التل الذي أمامي، هل يمكن أن تكون شجرة حقيقية أم أن أفكاري تخيّل لي ذلك، ركضت نحوها كغريق يستنجد بقشة، هي ذي قشتي التي ستأويني خلال ساعات الليل المقبلة، طويت المسافة وأنا أراها تقترب مني رويداً رويداً حتى صرت تحت ظلها الخفيف، شجرة بلا أوراق انفتق لحاؤها بدت كعجوز اسطوري وسط صحراء قاحلة، جميل أن يجد المرء كائناً حيّاً يؤنسه في وحدته، حتى وان كان شجرة، علّقت حقيبتي وبندقيتي في احد الاغصان ورحت اتفحص المكان بحثاً عن جحور لافاعٍ أو جرذان صحراوية، لا شيء هنا يشير اليها لكن ربما في الليل تخرج، من معلوماتي البسيطة أن الافاعي تعيش سباتاً في الشتاء فكيف ستغادر سباتها..

خيّم الليل، صعدت الى أعلى الشجرة، دثّرت وجهي بالكليتة وارتديت قفازاً ثم ألقمت بندقيتي بإطلاقة تحسباً لاي طارئ، أسندت ظهري على غصن قوي، المكان موحش، وتزيده وحشة أصوات تلك الصواريخ ولهيبها الذي يبدد سكونه، صواريخ تنطلق حيث البعيد، لا أعرف في أية منطقة ستسقط ومن سيكون ضحيتها، لم تتوقف اسرابها أبداً، سرب يتلو آخر، كأن الموت يتبارى في حصد الأرواح وأنا الجالس في أعلى شجرة لا أستطيع أن أفعل شيئاً، هل تستطيع هذه البندقية الصدئة أن توقف تلك الصواريخ، ضحكت في سري وقلت "يا لها من فكرة مجنونة وسخيفة!". البرد هنا لا يطاق، أكاد اتجمّد، خدر ينتاب اصابع قدمي وعيناي تدمعان، الريح الباردة تحرّك الشجرة اليابسة وجسدي يتمايل معها، كأني في أرجوحة وهناك من يهزني فيها، ساقضي الليل بساعاته وانا أهتز فرط البرد والريح، ليت هذه الساعات تنتهي مثلما انتهت ساعات النهار بسرعة، أزيز طائرة سمتية أسمعه وهي تقترب من المكان، بدت قريبة مني جدا حتى اهتزت الاغصان اليابسة، صفير المروحة يكاد يمزق أذني، تبعتها سمتية أخرى وأخرى، ثلاث أو أربع سمتيات مرّت وأنا أتشبث بالغصن الكبير للشجرة دون ان ارى الا كتلا كأنها تماسيح تمر من فوقي، لا اعتقد انها سمتيات عراقية فالهدير الذي سمعته يختلف عن أصوات طائراتنا المنخفضة، لا بد أن تكون من طائرات الأباتشي الأمريكية الضخمة، وهذا يعني أنهم ربما بدأوا الحرب، وإلا ما الذي يجعل طائرات الأباتشي من ان تدخل أجواءنا..

زحف ساعات الليل يؤرقني، الثواني بطيئة فكيف بالدقائق والساعات، خاملة، باردة،رتيبة.. لعل يد الله تدفعها ليأتي نهار دافئ يعيد إليّ قوتي ونشاطي، حلمي بالنهار الآتي إستحوذ على كل ما يمكن أن تراودني من أحلام يقظة، كم ليلة مثل هذه الليلة سأقضيها في عرض الصحراء، واذا نجوت في ليلتي هذه فهل سأنجو في الليالي الأخرى..؟

حاولت ان احفر في ذاكرتي وابحث عما يسليني وينهي الليل البارد، حكايات كثيرة تتقافز في رأسي، اريد ان اختار اطولها، او اختار اكثر من حكاية، ودون ان احفر كثيرا تذكرت حين جلست أول مرة أمام المصور الشمسي على الكرسي الحديد أمام الصندوق ذي الأرجل الثلاث وقطعة القماش السوداء، كان ذلك في السنة الاولى لدخولي المدرسة الابتدائية، ما كنت لأصدق أن الرجل الذي يمدّ يده بين الفينة والأخرى عبر قطعة القماش حيث قلب الصندوق انه سيريني وجهي كما أراه يومياً في المرآة، وحين ظهرت الصورة السالبة ورأيت الوجه الأسود والشعر الأبيض ضحكت وظننت أن شيئاً ما غيّر ملامحي، فقد كنت متيقناً منذ الصباح أن وجهي لم يكن بالسواد الذي رأيته في تلك الصورة.. اردت حينها أن اصرخ في وجه (إسماعيل المصوّر) لكن خوفي من امّي التي كانت ترافقني بدد صراخي وانتظرت لحظات والمصوّر يضع الوجه الأسود قبالة الصندوق على خشبة تمتد من فجوتها الأماميّة وراح ينظرُ في نتوءٍ في الجهةِ الخلفيّةِ لذاك الصندوق وما هي الا لحظات حتى أخرج قطعة الورق البيضاء فرماها في السطل المملوء بالماء.. لم اصبّر نفسي حتى مددتُ

يدي اليها وابتلّت اصابعي بالماء المصفرّ اللزج، فرأيت الصورة الحقيقية وشككت في أن إسماعيل المصور هذا لم يكن رجلاً عادياً انما هو ساحرٌ!!

ضحكت في سري، وندبت حظي، امور متداخلة تعتريني ما بين الخوف والالم، وانا انتظر خيط الفجر والشمس التي ما احتجتها في ليلة كحاجتي لها في هذه الليلة الباردة.

في الشرق أطلت الشمس بضفائرها هادئة وبدأ وجهي يتحسس الدفء الذي تبثه في المكان، كم أنت رائعة أيتها الشمس، وكم هو رائع هذا النهار.
النهار الجديد منحني الامل في أن أعيش يوماً آخراً، وقررت أن تكون خطواتي أسرع، حملت حقيبتي وبندقيتي التي ما زلت أشعر ببرودتها وأطلقت لساقي العنان وهرولت بإتجاه الشرق، ما زالت هناك طائرات مقاتلة تخترق الاجواء، ودخان كثيف أراه عند خط الافق ما منحني أملاً في أن المدينة تقبع هناك عند الدخان الذي اخذته الريح بعيداً.. الغيوم بدأت تجمع شتاتها، وأنا ما زلت أجري، دعوت الله ان لا يأتي بالمطر، دعوته كثيراً، وقطعت عهدا على نفسي أن أكون عبداً صالحاً له، وتمنيت لو تحققت المعجزة ليريني المدينة في وقت قريب.. قلت في سري: "ألم تقل من قبل أن زمن المعجزات قد انتهى، كن صادقاً مع الله ينجيك!"..
قادتني خطواتي حيث التل الذي أمامي، لا ادري كيف استطعت أن أصعد للاعلى بعد تعب شديد.. صعدت وأنا أجمع أنفاسي، وتراءى لي شبح قلعة كبيرة خلتها للوهلة الاولى أنها أحلام يقظة، أتراني وصلت وتحققت المعجزة..؟

(16)

يبدو اني استطعت ان امسك أول الخيط، المبنى الذي أمامي كان عبارة عن مجموعة قاعات صفت بانتظام لا يفصلها عن بعض الا ممرات، تقدمت نحو المنخفض بخطوات حذرة، وسرني اذ رأيت عددا من الطيور وهي تحلق فوق المبنى، إستأنست للمنظر، بالرغم من ان المكان خال الا اني شعرت بأن نهاية رحلتي قربت وان المدينة قاب قوسين مني.. وصلت الى السياج العالي المبني من الطابوق، جدار قديم انهار جزء منه وزحفت عليه النباتات البرية التي لم يبق منها سوى أغصان ناعمة يابسة، وثمة نوافذ صغيرة صفت على شكل خطين افقيين على امتداد الجدار، عدة خطوات تفصلني عن الفتحة الكبيرة

التي تراكم الطابوق عند مدخلها، لمحت عدة كتابات كتبت بخط أنيق خطت باللون الاخضر هي شعارات كثرما شاهدتها في شوارع المدن التي مررت بها في السنوات الماضية، شعارات فارغة، البعث مدرسة الأجيال، والخزي والعار لعملاء الصهيونية، الله..الوطن..القائد، وغيرها من الشعارات الرنانة، لم أدخل للمكان الذي تناثرت في ساحته بعض العلب وبقايا أقمشة وأحذية، تذكرت هذه القلعة التي وصفها لي صديق شيوعي اقتيد الى هذه القلعة مع رفاق له، هي اذن قلعة سجن السلمان والذي يسميه الناس "نقرة السلمان"، كنت قد قرأت عنه كان عبارة عن قلعة عثمانية قام بترميها عام 1918 القائد البريطاني كلوب باشا الملقب (أبو حنيك) ولُقب بذلك لإصابته برصاصة أثناء الحروب في حنكه وبقي أثرها في حنكه،وجعل القائد البريطاني من القلعة موقع مراقبة للقوات البريطانية للحدود العراقية مع السعودية والكويت لمنع حالات التسلل والتهريب عبر الحدود،ولحماية قواته من هجمات البدو وكذلك من الذئاب المفترسة التي تشتهر في تلك المنطقة، اتذكر ما قال لي صديقي الشيوعي قدوري وهو يسرد حكاية رفيقه المحكوم بالاعدام الملازم الاول صلاح الدين احمد الذي قضى بعد هروبه من نقرة السلمان:

"جرى التخطيط لعملية الهروب على فراشي في سجن نقرة السلمان بين مسؤولي المنظمة الحزبية بشخص المرحوم سامي احمد والشهيد صلاح، حيث تم اعداد مستلزمات الهروب وهي بوصلة وسكين يابانية الصنع قبضتها حمراء اللون، وكذلك مجموعة من الحبال والتمر مع بعض الاطعمة المجففة، بالاضافة الى قليل من الماء، بعد اكمال الاستعدادات لضمان سلامة عملية الهروب،

اعرب ممثل السجناء لدى ادارة السجن في مغرب احد الايام عن حاجة السجناء الى بعض الماء من البئر التي تقع خارج سياج السجن، وفي مثل هذه الحالة لا يجري عريف الخفر تعدادا للخارجين والداخلين، ولا تفتيشهم بعد جلب الماء، فخرج ثمانية سجناء من ضمنهم الراحل ملازم اول خالد حبيب يحملون صفائح لغرض جلب الماء، عاد سبعة منهم، اما صلاح الدين فمكث مع مستلزمات هروبه داخل البئر بانتظار اللحظة المناسبة لهروبه ليلا، لم يكن في بال صلاح الدين ولا منظمة الحزب في السجن ان تلك الليلة كانت مقمرة، ما اجل تنفيذ عملية الهروب..

في اليوم التالي لبقاء صلاح الدين في البئر خارج جدران السجن جرى التعداد الصباحي اليومي للسجناء بعد منع التجول داخل السجن وتمت تغطية النقص بشكل جيد بعد استغفال الشرطة المكلفة بالتعداد. مر ذلك اليوم على السجن بسلام ذلك لان الشرطة بعد تعداد الردهات العشر للسجن يقومون بتعداد المتفرقات مثل المطبخ والسمكرة والصيدلية وبما ان لكل ردهة بابان امامي وخلفي ولكون الردهة العاشرة بجانب المطبخ مباشرة يتسلل احد الرفاق من الباب الخلفي بخفة متناهية ويلتحق بالمطبخ فيتم تعداده مرة ثانية لغرض التغطية على النقص.

وفي عصر اليوم الثاني لبقاء صلاح الدين في البئر، اعيد سيناريو اخراج بعض السجناء لغرض جلب الماء من البئر الذي يقع خارج اسوار السجن فلاحظت هذه المجموعة من السجناء ان صلاح الدين احمد ما زال داخل البئر ولم يستطع الهروب تلك الليلة لان القمر كان بدرا، وكان للكلاب دور سلبي في

العملية بسبب نباحها العالي على كل غريب في المنطقة المحيطة بالسجن مما اضطره للعودة الى داخل السجن مع نفس المجموعة المكلفة بنقل الماء وكان منهكا وفي حالة صحية سيئة مما اضطره الى البقاء داخل السجن حوالي الاسبوع الى ان استعاد عافيته.

تم تنفيذ سياقات عملية الهروب مرة ثانية، فتسلل الشهيد بامان من البئر الى صحراء البادية الجنوبية، مستعينا بالنجوم وخاصة نجوم بنات نعش وكذلك الاعتماد على البوصلة لمعرفة الاتجاهات الاربع وتحديد مساره على ضوئها وكان الشهيد ياخذ قسطا من الراحة خلال النهار لضمان عدم اكتشافه من قبل دوريات شرطة البادية الجنوبية وكذلك شرطة الكمارك التي تقوم بمكافحة التهريب عبر الاراضي السعودية.

في داخل السجن تم في اليوم التالي والايام التي تلته تغطية النقص بنفس السياقات السابقة وكان الرفاق القريبون من موقع قرار عملية الهروب يزدادون فرحا كلما مر يوم ولم تستطع ادارة السجن كشف النقص في عدد السجناء، وفي اليوم المشؤوم وهو اليوم الخامس لعملية الهروب وتحديدا في الخامس عشر من تشرين الثاني عام 1964 تم استلام برقية من قبل هيئة الانصات على اللاسلكي داخل السجن والتي تديرها منظمة السجن بان شرطة البادية خلال تجوالها في تخوم الصحراء عثرت على جثة سجين هارب من نقرة السلمان نهشتها الذئاب على مقربة من الطريق الترابية التي تؤدي الى مركز السماوة".(**)

المكان موحش، وثمة دخان ألمحه ينبعث من احدى الغرف البعيدة، تساءلت مع نفسي: "أين ذهب سجناء نقرة السلمان، ربما صدر عفو عام واطلق سراحهم جميعاً، ولكن أين ذهب الحراس..؟!".

(17)

الطريق الترابية قادتني حيث قضاء السلمان، اشجار عالية ألمحها من بعيد تحركها الرياح شمالا وجنوباً، الطريق تخنقها الرمال من جانبيها وتبدو كخيط أسود وسط الصحراء القاحلة، أسرعت الخطى باتجاه المدينة الحلم، وكانت المدينة تقترب اكثر واكثر، تعثرت بسلك كان ممدودا بين جانبي الطريق، فسقطت حقيبتي بعدما تجنبت السقوط، نظرت الى امام، ثمة نخيلات تنتشر في المكان، واناس أراهم بدشاديشهم التي تنسفها الريح، فكرت فيما اذا دخلت المدينة فسأتصل بأقرب وحدة عسكرية، أو أن ألجأ للإنضباط العسكري وأطلب منهم نجدة زملائي، ها آنذا الآن في مدخل المدينة التي قطعت الصحراء كي ألتقيها، مدينة لم أدخلها من قبل أنما مررت بها ليلاً ونحن نتجه الى الحدود.

"ها قد انتهت رحلتك، وستبدأ رحلة اخرى ربما أقل خطورة منه" رددت مع نفسي وتوقفت عند سيارة كانت جاثمة على جانب الطريق فيما انشغل سائقها بتبديل احدى اطاراتها، سلمت عليه وادار وجهه نحوي ورد السلام بابتسامة، قلت له:

- أريدك أن تدلّني على الوحدة العسكرية، او مقر الانضباط العسكري..

ضحك الرجل، ونكت يديه واقفاً، قال لي:

- لا توجد اية وحدة عسكرية هنا..

- كيف..؟

رد بعدما اشعل سيجارته بلهجة غريبة:

- سرّحناهم!

لم ارد عليه، فما سمعته منه لا يبشّر بخير..

قال لي:

- من أين أنت..؟

قلت:

- أنا جندي عراقي...

قال:

- كيف وصلت الى هنا..؟

- سيرا على الاقدام..!

رد وعلامات الذهول ملأت وجهه:

- ربما أنت آخر جندي عراقي أراه..
- لماذا..؟
- لأن الدنيا تغيرت، الامريكان بالولاية، وكل الجنود فروا..!

ذهلتني كلماته، هل بدأت الحرب فعلا، وهل احتل الامريكان المدينة، اسئلة كثيرة دارت في رأسي ولم يعطني الرجل مزيدا من الوقت، قال:

- لو رآك الامريكان ببندقيتك هذه سيعتقلونك..
- والحل..؟
- تخلص منها واذهب لاهلك..

قلت له:

- لكن أهلي في الجنوب..

قال:

– إذن تعال معي، ارتح يوما ومن ثم إذهب لاهلك.

قادني الرجل الذي قال لي فيما بعد ان اسمه ناصر الى الطريق الذي يقسم المدينة الى نصفين، ثمة صورة لصدام وقد سقط نصف وجهه، بينما بقيت الرتبة العسكرية على حالها ،تذكرت احد الجنود يوم كنا في الثكنة حين اعتقل في الاستخبارات العسكرية لانه شوهد وهو يتبول خلف صورة الرئيس، كان ذلك اليوم كئيباً حين اشبعوه ضربا قبل ان يقودونه بسيارة الواز الى جهة مجهولة عرفنا بعد ايام انه في الاستخبارات العسكرية، ومن يومها صار واحدنا يلقي التحية على صورة الرئيس كلما مر بالقرب منها، لم انتبه لناصر وهو يقدم لي سيجارة الا بعد ان قال بصوت عال:

- هل تدخن..؟

قلت له:

- معدتي فارغة..

قال:

- بعد قليل نصل الى المنزل وستكون هذه الليلة بضيافتي..

لم ارد عليه، فراحت عيناي تترصدان المدينة، كأن اعصارا مر بها وترك اثاثا لمكاتب ملقاة هنا وهناك، احس ناصر بدهشتي وقال:

- تلك اثاث الفرقة الحزبية، نهبها الناس ثم احرقوها، اخذوا ما يستفيدون منه وتركوا الباقي في الشارع..

الان بدت الصورة تتضح في رأسي، المدينة سقطت بيد الامريكان، لكني لا اعرف هل انهم دخلوا بغداد.. طلبت من ناصر ان يفتح الراديو ربما تبدد الاخبار حيرتي لكنه اخبرني ان الراديو لا يستلم اي اذاعة لان جميع المرسلات التي تقوي البث قد اسقطتها الصواريخ الامريكية، قلت له:

- ما اخبار بغداد..؟

ضحك ناصر وهو يسحب نفسا طويلا من دخان السيجارة:

- الامريكان في بغداد..!

- والقيادة..؟

- أية قيادة؟ لم يبق أحد، اصدرت قوات التحالف قائمة بهم وخصصت مكافأة مالية كبيرة لمن يدلهم عليهم.

لا اعرف ما الذي حل بزملائي وهم في تلك الصحراء الواسعة، وهل نجا منهم أحد، تذكرت كلام العريف قاسم وهو يوصيني قبل ان اخرج في رحلتي الطويلة: (الحرب القادمة ستكون قاسية لا تبقي على احد واذا سمعت بها وأنت في البلدة فلا ترجع الى هنا ابداً..).

دخلت السيارة في طريق ترابي، وخفف ناصر من سرعتها، قال مستهجنا وهو يشير الى الطريق الممتدة امامنا: "لا اعرف متى يبلط هذا الطريق، كل الحكومات لم تهتم به" والتفت الى جانب الطريق حيث آلية جثت محترقة وبصق بحرقة وهو يردد: "ألف لعنة على الامريكان".

من بعيد بدت بعض البيوت خلف بستان نخيل يابسة، بيوت تحبس انفاسها بانتظار المجهول، صبية يلعبون بكرة مثقوبة يركضون خلفها بصياحهم بينما سمعت صوت اذان مصدره مسجد ارتفعت منارته المصنوعة من الحديد ووضعت في اعلاها مكبرات صوت وجهت الى الجهات الاربعة.

قال ناصر:

– البيت قريب، لكننا سنصلي في المسجد..

اتجه بالسيارة صوب المسجد الذي انهى مؤذنه الاذان، ترجلنا، ثمة شباب يدخلون المسجد بعدما يخلعون احذيتهم عند عتبة الباب الرئيس، احذية مختلفة الاشكال والالوان، دخلت المسجد وانبعثت رائحة بخور اعادتني لبيتنا القديم يوم كانت امي تبخر الغرف الثلاث لتطرد الشر كما كانت تقول وكلما دخلت غرفة بدأت تبسمل وتقرأ آيات من القرآن الكريم، كانت تقول لنا لا

تدخلوا الغرف المظلمة دون ان تبسملوا وتصلوا على النبي ومن يومها كلما دخلت مكانا اصلي على النبي.

في المسجد شعرت براحة لم اشعر بها منذ ايام، اشعر ان روحي عادت إلي، وان نبضات قلبي بدأت تنتظم، غادرني الخوف والقلق ودب في داخلي احساس بالطمأنينة.

بعد الصلاة، عدنا الى السيارة، وتحسست اسفل المقعد الذي اجلس فيه لاتأكد من وجود البندقية التي اخفيتها في المكان، لم يكن منزل ناصر بعيدا عن المسجد، وصلنا اليه بعد بضع دقائق.

لم يكن المساء هادئا كما هو النهار، أصوات قذائف اسمعها عن بعد، فيما أزيز الطائرات لم ينقطع، فتحت النافذة ونظرت الى البساتين الممتدة أمامي، وميض متقطع أراه فوق قامات النخيل، رأيت ناصرا مع مجموعة من الشباب وهم يتحدثون خلف السيارة التي أقلتني، شعرت بان احدهم لمحني وأشار بيده نحوي فيما التفت ناصر باتجاه النافذة، هز رأسه وطلب من الشباب ان يرافقوه.. أغلقت النافذة وانتظرت، صاح ناصر:

– تفضلوا يا شباب..

دخل أربعة من الشباب وهم يحملون بنادق كلاشنكوف فيما وضع احدهم رمانتين يدويتين في حزامه.. عرفت بعد ذلك ان الشباب يشكلون مجموعة لمقاومة الاحتلال، قال ناصر:

– هذا ضيفي، وسيغادرنا فجر الغد الى أهله.. هو من الجنوب..

قال احد الشباب:

– حي الله أهل الجنوب، أهلنا وتاج رؤوسنا..

قلت وأنا ما زلت احتفظ بالأسئلة:

– الله يحييك يا بطل..

جلس احدهم بجانبي فيما جلس الباقون قبالتي، واستأذن ناصر ليجلب الشاي، قال احد الشباب:

– هل أنت جندي..؟

– نعم، ووحدتي على الحدود، نحن نزرع الألغام وجئت اطلب المساعدة لزملائي..

– هل تصادمتم مع الأمريكان..؟

– لا اعرف، تركتهم قبل الغزو..!

ساد صمت قبل ان يدخل ناصر بصينية الشاي توسطها ماعونا رز ومرق حيث وضعها على الأرض وهو يردد "حي الله بالشباب"..

امتدت الايدي حيث اكواب الشاي بينما قرّب ناصر الماعونين مني.

مددت يدي وبدأت أتناول الطعام بهدوء فيما راحت تدور في رأسي أسئلة عديدة عن الشباب والاسلحة التي يحملونها، كان ذلك قبل ان يخبرني ناصر انهم مجموعة تنتمي الى جناح عسكري في حزب ديني قرروا مقاومة الاحتلال بعد ان تيقنوا ان الامريكان لم يدخلوا العراق للاطاحة بصدام انما للاطاحة بكل تاريخه وقيمه، لهذا فأنهم يقومون بعمليات بالقرب من تجمعات الجنود الأمريكان حتى انهم قتلوا أعدادا منهم واحرقوا بعض آلياتهم.

قلت لناصر: لدي بندقية مع عتادها، تركتها تحت مقعد سيارتك ليأخذها الشباب فهي حلال لهم.

هتف احد الشباب: الله اكبر

وقال ناصر: ما دامت فينا هذه الروح لا يمكن ان يلوث أرضنا أجنبي !

تركت ناصر مع الشباب وهم يتحدثون بينما انزويت في ركن الغرفة، أغمضت عيني ورحت أحاول إيجاد إجابة لكل الأسئلة التي تدور في رأسي، وكأني لم استوعب ما سمعته من سقوط حكم كنا نظن انه سيبقى طويلا، كيف سقطت المدن العراقية واحدة تلو الأخرى وأين ذلك الجيش الكبير عددا وعدة، تلك الفيالق التي وصلت أخبارها الى أقصى الكون، هل يعقل ان تذوب كل تلك القوات بهذه السرعة..؟

لم اشعر بخروج الشباب من الغرفة، الا أني شعرت بعودة ناصر وهو يغلق الباب، فتحت عيني ورأيته واقفاً قال لي:

– حسبتك غفوت..

– لا، كنت سارحاً فيما جرى..

اقترب مني وجلس وهو يقول:

– هناك أمور لا يمكن أن يستوعبها عقل، امور كثيرة حدثت وكأنها افلام هندية !

ضحك وضحكت معه، وأنا اردد، "حقيقة كأنها فلم هندي".

وراح ناصر يحكي لي حكايات لم تخطر على بال، حكايات ظننت انها من نسج خياله لكنه كان يقسم ان ما حدث لابناء منطقته كان حقيقة، حدثني عن

تيمور الكوردي، الطفل الذي نجا من ليلة الموت، تلك الليلة المعتمة من عام 1988 حين شاهد راعي الاغنام دليل الزيادي وهو يتخذ مكانا بعيدا عن المدينة، هناك في عمق الصحراء وعلى مبعدة سبعين كيلومترا من مدينة السماوة باتجاه قضاء السلمان، شاهد قافلة من الشاحنات تعبر الصحراء وتتجه غربا، كانت تلك الشاحنات تحمل نساء ورجالا، بينما كانت تتبعها شفلات كبيرة عادة ما تستخدم للحفر، وسيارات حديثة من تلك التي يستخدمها رجال الامن، شعر دليل ان هناك ما يدعو للريبة في امر تلك الشاحنات فقد سرت اشاعات قبل ايام في قيام رجال الامن بتصفية للمعارضين لهم، كانت الحرب مع ايران قد انتهت قبل شهر، لهذا فقد تفرغوا لمعارضيهم.. في تلك الليلة سمع اصوات اطلاق الرصاص بكثافة، لم يستطع ساعتها النوم فقد بقي يقظا في خيمته، اكثر من ساعتين والرصاص ينهمر، يتوقف حينا ويبدأ حينا بشكل محموم، وسمع بعد ذلك اصوات الشفلات وهي تبدد سكون الليل، وما هي الا ساعات وعاد الصمت المخيف، لم يعد يسمع شيئا، كأن شيئاً لم يكن..

وضع دليل رأسه على الوسادة التي صنعها من صوف الاغنام، وراحت تدور في رأسه اسئلة كثيرة، جميعها تتعلق بما رآه الليلة، في ساعات ما قبل الفجر وبعد ان استسلم لاغفاءة فز على نباح كلبه، خرج من خيمته بعد ان تلقف بندقيته البرنو وسار خطوات باتجاه كلبه وفوجئ بطفل في السابعة من عمره يجلس على الرمل خائفاً، دنا دليل منه واراد ان يعرف من أين جاء لكن

الطفل كان صامتاً، اصطحبه الى الخيمة، قدم له الماء، كان الدم يسيل من كتفه الأيسر، دم غطى ملابسه، وعرف دليل من خلال زي الطفل انه كردي.
لاح خيط الفجر وجمع دليل أغنامه وعاد الى المدينة مسرعاً، وطلب نجدة احد معارفه حيث كان يعمل في المستوصف الصحي، وطلب من الطفل ان لا يتكلم أمام احد خشية ان يصل الأمر لرجال الأمن، واستطاع دليل ان يقنع الطبيب بأن ابنه الأخرس أصيب بطلق ناري من شقيقه الأصغر عن طريق الخطأ، ومثل هكذا امور تحدث عندهم ولا يتطلب الأمر إخبار الشرطة وهذا ما حدث.

بعد ايام تماثل الطفل للشفاء، وعرف دليل انه واحد من الذين نفذ بهم حكم الإعدام وان هناك أفراد من أسر كردية جلبوا من منطقة كلار تم إعدامهم ودفنت جثثهم في الصحراء، كان مع الطفل جدته وامه وشقيقاته الخمس اما والده كان في شاحنة أخرى من قافلة الموت.

كانت حكاية الطفل تيمور غريبة، حيث وضع الناس في الحفرة وأطلق عليهم النار بكثافة ثم بدأت الشفلات تدفنهم بالتراب وكان الأنين والصراخ مرعبا، يقول تيمور انه لم يدفن بشكل كامل وفيما كان المكان معتما لم يره رجال الأمن حيث استطاع ان يخرج من مدفنه بعدما غادروا المكان.

بقي الطفل تيمور عند الراعي دليل في قريته الصغيرة جنوب مدينة السماوة، تعلم في القرية الرعي فقد كان يخرج مع دليل كل يوم، وفي كل لحظة يتذكر تيمور من بقي من أهله، كانت الذكرى تشكل له خيط أمل في أن يلتقي بهم..

سنوات مضت وتيمور الذي أصبح اسمه فيما بعد علي تعلم العربية، وصار واحدا من أبناء القرية الذين لم يعرفوا عنه غير انه ابن دليل..

ذات يوم طلب تيمور ان يرى أهله في كلار، وظل يلح عليهم الأمر الذي جعل دليل ان يكلف احد ابنائه وكان جندياً بالتحري عن أخوال وأعمام تيمور ولم تمض ايام الا وجاء بهم بحجة انهم تجار، والتقى تيمور بمن بقي من اهله، وكان يوم اللقاء فرحة كبيرة لعائلة دليل.

حكاية تيمور هذه تذكرني بحكايات أمي وهي تسرد علينا ما جرى لأطفال خطفتهم الخضرة أم الليف وحمارة القايلة والقرطة والدبة، وهي كائنات رسمتها مخيلة الناس يومذاك، ثم عادوا بعد سنوات الى أهلهم بعد ان خطت شواربهم، تلك كانت حكايات من نسج خيالها الا ان حكاية تيمور حقيقية وهي شاهد على أيام عاشها العراقيون بخوفهم وموتهم.

نام ناصر في غرفة الضيوف، معي، وعندما طلبت منه ان يرتاح في غرفته مع عياله أصر على ان يبقى معي لأنهم لا يتركون ضيوفهم.

(18)

في الصباح، رافقني ناصر حيث كراج السيارات بعد ان دس في جيبي مبلغا من المال، وبعد رفضي قال: "هذه فلوس جديدة لان العملة قد تغيرت يا صاحبي".. مددت يدي الى جيبي وأخرجت الأوراق النقدية، تمعنت فيها وانا اردد: "وماذا عن العملة القديمة..؟".. أجابني ناصر انه بإمكاني تبديلها في المصرف بعملة جديدة..

تذكرت يوم صدرت إشاعة هبوط سعر الدولار وراح التجار يعرضون بضاعتهم على الأرصفة بأسعار وجدها الناس فرصة لاقتناء ما لم يستطيعوا اقتناءه وقت الحصار، سلع متنوعة ونقلت الأخبار يومها عن موت بعضهم بسبب الخسارة التي سببتها الإشاعة، ولا اعرف هل جرى للسوق بتبديل العملة ما جرى في ذلك اليوم الحصاري؟..

سألت ناصر: وما أخبار السوق..؟

أجابني: كل شيء موجود فدول الجوار أغرقت أسواقنا ببضاعتها..!

ربما هي واحدة من الإجابات التي ابحث عنها، وان ما حصل لنا عاد بالفائدة (لدول الجوار) وتذكرت القول "مصائب قوم عند قوم فوائد".

لم يكن الحصول على سيارة تقلني الى الجنوب بالأمر السهل الا ان ناصراً استطاع ان يجد احد أصحابه في الكراج الذي أوصاه ان يوصلني الى أهلي، كان ناصر صورة للعراقي الذي اعرفه، بكرمه وإيثاره وإخلاصه، لم تكن معرفتي به الا ساعات معدودات لكني اشعر اني اعرفه منذ زمن، يذكرني بصديق قديم أيام الدراسة ذاك الذي يقضي نهاره بمساعدة الناس حتى حينما نذهب الى المدرسة ويطلب منه أحدهم ان يساعده في أمر ما سرعان ما يسلمني كتبه ويهم بالعمل، كان سعيدا بعمله، هذا الصديق لم يساعده احد حين ابتلعته مياه شط العرب، غرق دون ان نعرف كيف حدث ذلك وهو السباح الماهر.

يوم غرق ماهر، وهذا هو اسمه، كان يوما حزيناً، مدير المدرسة نكس العلم العراقي حزناً عليه، فيما تجمعنا في الساحة ورفعنا صوره..كان سبّاح المدرسة وحصل على كؤوس كثيرة في المسابقات المدرسية، يوم غرق كنت في المنزل، كان يوم جمعة، في مساء الخميس كنا معاً، انهينا دوامنا وخرجنا من المدرسة، طيلة الطريق كان يحدثني عن أحلامه، وعن مشاركته المستقبلية بالمونديال، كنت اسخر منه، المونديال !! الا انه كان مقتنعا تماماً ان فرصة الفوز بالمونديال آتية لا ريب. مات ماهر ولم يحقق أمنيته.

السيارة التي أقلتني الى الجنوب دفع اجرتها ناصر، جلست في المقعد الأمامي جنب السائق الذي ألقم جهاز التسجيل بكاسيت حمل صورة لوجه جميل كنت أظنه مغنياً الا ان الصوت الذي انبعث من الجهاز كان لمنشد ديني يشبه في أدائه الأغاني التي سمعتها من قبل الا أنه يؤدي بلا موسيقى، أشعر بأني الغريب الوحيد في هذه المدينة، كل الأمور تغيرت بسرعة، لم يبق شيء على حاله، حتى الصور والملصقات في الشارع الذي قطعناه اختلفت، لافتات كثيرة وصور لأشخاص معممين من مختلف الطوائف، وإعلانات عن مطلوبين للعدالة، أوقفتنا دورية عسكرية قبل أن نصل الى الطريق السريع، قال السائق وهو ينظر بالمرآة التي أمامه موجها كلامه للركاب: من لديه سلاح ليسلمه الى الأمريكان لا فائدة من إخفائه لأنهم يمتلكون أجهزة تكشف ما تحت ملابسنا!!

ضحكت في سري، وحمدت الله أني سلمت البندقية للشباب قبل أن تسقط بيد الأمريكان، فتح الباب جندي بكامل تجهيزاته العسكرية، ووقف خلفه آخر بملامح عربية، راح ينظر في وجوه الناس، ورطن بلغته الانكليزية التي لم يفهمها أحد الا أن الشخص الواقف خلفه قال بلهجة خليجية: أخرجوا هوياتكم وترجلوا من السيارة مع حقائبكم..

نزلنا واحدا تلو الآخر وشكلنا طابورا طويلا، ووضعنا حقائبنا على الأرض فيما راح كلب بوليسي من تلك التي كنت أراها في الأفلام الأجنبية يدور حول الحقائب، حقيبة تلو أخرى وفي كل لحظة يسحب الجندي رباطا شده برقبة الكلب الى الخلف ليتأكد الشمام ثانية من إحدى الحقائب، أكثر من

نصف ساعة مضت ونحن نقف في طقس بارد وريح شمالية توخز وجوهنا، توقف الكلب عند حقيبة سوداء، ظل يدور حولها وهو يشمها بين حين وآخر، طلب الجندي من صاحب الحقيبة ان يفتحها قائلا بلغة انكليزية:

– The owner of this bag comes and opens

تقدم رجل في الأربعين من عمره بعد ان سمع المترجم وهو يقول: على صاحب هذه الحقيبة أن يأتي ويفتحها.. انحنى عليها وسط ذعر أفراد الدورية الذي شاهدته على وجوههم، فتح الحقيبة واخرج منها مسدساً ما دعا الجنود الى رفع أسلحتهم في وجهه فيما صرخ احدهم:

– Lift up your hands

لم يعرف الرجل ما يقوله الجندي وراح يلوح بمسدسه وهو يقول:

– انا شرطي وهذا مسدسي..!

المشهد يمر سريعاً وكأني أمام شاشة عرض سينمائي، رجل على الأرض يلوح بمسدسه، وجنود مدججون بالأسلحة يصوبونها باتجاهه، الذعر يسيطر على المشهد والعيون تحدّق بهم، وقبل أن يقول المترجم كلمة انهمر الرصاص على جسد الرجل وتطاير الدم في كل اتجاه، وسقطنا جميعا دون أن ندري على الأرض.. وضعت يدي على أذني فلا ادري ما الذي سيحدث فيما بعد، ربما سنأخذ حصتنا من الرصاص، ليمحو الأمريكان جريمتهم..

لحظات صمت أعقبت صوت الرصاص،رفعت راسي لأتحرى الأمر فشاهدت أحد الجنود وهو يتقدم باتجاه الرجل الذي غطى جسده الدم، التقط المسدس من الأرض فيما اقترب منه المترجم وهمس في أذنه بكلمات لم أسمعها، ربما كان

يقول له ان القتيل كان شرطياً، هز الجندي الأمريكي رأسه وهو يأمرنا بالصعود الى السيارة..لم أكن أتوقع أنهم سيتركوننا نذهب، فالجريمة التي كنا شهودها تتطلب تحقيقاً الا ان الغريب ان الجندي أمر السائق ان ينطلق بنا حيث الطريق السريع..

لحظات الرعب لم تغادر كل من كان السيارة، ساد صمت رهيب حتى أن السائق لم يقم بتشغيل جهاز التسجيل كما فعل في المرة الأولى، الرجل الجالس بقربي اخرج من جيبه ورقة وراح يقرأها بصوت مسموع، كان دعاءا كتب بخط اليد، قال السائق للرجل الذي يقرأ: ارفع صوتك ليسمع الدعاء الجميع.. أكمل الرجل قراءته بصوت أعلى، فيما راح الركاب يرددون معه بعض ما كان يقوله.

الطريق يمتد بنا، وحالة الذهول والخوف لم تغادرنا كلما مررنا بسيطرة في الطريق، على جانبي الطريق يبدو الخراب واضحاً، بنايات مهدمة، ونخيل بلا رؤوس، كل شيء هنا امتدت له يد الخراب، حتى الطريق الرئيس ثمة حفر أحدثتها بعض القذائف، اضطر السائق أكثر من مرة ان ينزل الى حافة الطريق ليعبر إحدى الحفر، قال السائق ان السرعة تجلب المخاطر فالطريق الذي تعود عليه لم يكن كما كان عليه يجب ان لا تتعدى السرعة عن تسعين كيلومترا في الساعة وهذا يعني ان وصولنا سيتطلب أكثر من ثلاث ساعات.

"ثلاث ساعات مليئة بالمفاجآت" حدثت نفسي وأنا استحضر صورة الرجل الذي لا نعرف اسمه وهو مضرجا بدمه.. كم فردا سيلقى حتفه في الساعات الثلاث المقبلة، وأية مفاجأة ستكون بانتظارنا..

قلت للسائق: كان علينا ان نلجأ لمركز الشرطة ونخبرهم بما حدث..
أجابني السائق دون ان يلتفت إلي: مركز الشرطة..؟ حبيبي الأمريكان فوق الكل وحتى فوق القانون..
يبدو ان الناس قد استسلموا لقدرهم بشكل لا يصدق، فما رأته عيناي يثبت ذلك ويؤكده، لا احد يهتم لأحد ما دام قد نجا بجلده من موت محقق، هذه بداية الخراب الذي يهدد النفوس وبداية الموت لشعب لم يعد حيّاً.. لم تكن حسابات العراقيين صحيحة وهم يهربون من النار الى الجحيم، هناك من كان يظن أن الأمريكان هم المخلص لهم الا أنهم وقعوا في كماشة الموت من جديد.. ها آنذا أعود من حياة الى أخرى تختلف عنها كثيراً، أعود حاملاً ورقة من العريف لا اعرف ما كتب فيها وعدم تعرض مزقته حين تيقنت ان البلد نزل الى الهاوية وحقيبة ما زالت تحتفظ بذكرى الأمس الذي لن يعود.
في السيارة وبعد ان انقشعت صدمة الركاب بما حدث راحوا يسردون حكايات مماثلة، لم اسمع منهم ما يمكن ان يشرح صدري، قتل ودماء وتعذيب وانتهاكات واعتقالات، عناوين يمكنني الآن ان أضعها أمامي تصلح للترويج عن أي منشور، عناوين صادمة يتحدث بها الركاب وكأنها حكايات من عالم آخر وليس أحداثا عاشوها، هكذا أصبحت الأمور تبدو طبيعية وكل منهم ينتظر حتفه بطريقة قد لا تختلف عما حدث، ربما كان الناس يظنون ان الأمريكان أكثر الأنظمة التي تراعي حقوق الإنسان، وأكثرها ثقافة لما كان يروج لهم الا ان الحقيقة غير ذلك فالذين غزوا بلدنا ليسوا سوى وحوش لا تفرق بين الضعيف والقوي.

قال أحد الركاب وهو يشير الى أوراق أخرجها من جيبه انه زار كل سجون المحافظات بحثا عن ابنه وشقيقه الا انه لم يجدهما وهو ذاهب الى سجن بوكا.

طلب منه السائق ان لا يتعب نفسه ويقطع المسافة الطويلة لان الأمريكان لا يقدمون أي معلومة عن المعتقلين وان سجن بوكا مليء بهم ولا يسمحون لأحد الاقتراب منه وقبل ان يعيد الأوراق الى جيبه قال الراكب انه يستطيع ان يدخل الى داخل السجن وبموافقة الأمريكان أنفسهم، لم يرد السائق وترك الركاب يحدقون في الرجل الخارق الذي سيدخل سجن بوكا (***).

سألت السائق عن السجن الذي لم أسمع عنه من قبل فأجابني الراكب الذي يجلس بجانبي انه معسكر اعتقال أمريكي يشبه الى حد بعيد المعتقلات التي أنشأتها الولايات المتحدة في الدول التي تغزوها.

تذكرت كلام الملازم لقمان وهو يصف الأمريكان بالحثالات ويقول انهم عبارة عن لملوم من الساقطين والمجرمين واذا ما تمكنوا من بلد فهم يحولونه الى غابة يأكل فيها القوي الضعيف.. هل وصلنا الى هذا الحال، وأصبحنا نعيش في غابة..

سمعت احد الركاب وهو يندب حظه ويقول "لقد سرحوا الجيش وألغوا وزارة الدفاع وأنا أسعى للحصول على حقوقي حيث قضيت في البحرية العراقية مدة لا تقل عن عشرين عاماً، ضيّعنا شبابنا في الجيش وها نحن نخرج بلا حقوق ولا رواتب، تصوروا حتى زوارقنا أغرقوها في الخليج كي لا نستفيد منها، انهم يخربون البلد".

كان الحديث في السيارة عبارة عن نشيج مر فكل راكب لديه قصة وتتنوع القصص المتخمة بالحزن والسواد، كيف تحول الناس الى مجرد رواة لأحزانهم، وكيف تعشش الحزن في صدورهم وأصبحوا قساة الى درجة انهم يغمضون أعينهم عن جرائم حدثت أمامهم. لا اعرف ما الذي يحدث بالضبط فكل الصور تزاحمت في رأسي وتداخلت فيما بينها ولم تعد هناك صورة واضحة لما يجري، غيابي عن المدينة جعلني لا افهم ما يجري فيها، ما سمعته من ناصر ومن ركاب السيارة التي أنا فيها الآن يجعلني أضيع في مسارات متشابكة ودهاليز مظلمة، هناك من قال أن الناس صفقوا للجنود الأمريكيين وهم يدخلون مدنهم ونثروا عليهم الورود وهناك من يؤكد ان هناك مقاومين للغزو، قتلوا منهم جنودا واحرقوا آليات، صورتان متناقضتان لما يجري، في مجتمع كما يقول الناس البسطاء عنه (أضاع المشيتين) او كما كان يقول أبي: (لا حظت برجيلها ولا أخذت سيد علي)، لم يفرحني سقوط النظام بهذه الطريقة، كنت انتظر اللحظة التي ينقض فيها الشعب على القصر الجمهوري ويسقطوا النظام بانتفاضة اكبر من تلك التي حدثت في الجنوب، انتفاضة تبدأ من بغداد، العاصمة التي شهدت سقوط عدد من العروش منذ نشوء الدولة العراقية، لا ان تدخل قوات أجنبية وتذل الناس قبل النظام وتعبث في المدن والقصبات.

الطريق يمتد، وغفا كل من في السيارة، كان السائق يتحاشى بين حين وآخر ما تركته القذائف من حفر، واسمعه يهمس كلما تجاوز حفرة "الله يلعنهم"..التقط علبة السجائر واخرج آخر سيجارة منها ورمى بها الى الخارج، قدمها لي وهو يقول :

– هل تدخن..؟

أجبته بالنفي فرد وهو يضعها بين شفتيه " أحسن لك لكن عليك إيجاد طريقة للسيطرة على أعصابك.

قلت:

– لا شيء يستحق الغضب..

نظر لي باشمئزاز وهو يشعل سيجارته وقال:

– أخي أنت في العراق...هل تعرف ذلك..؟ إن لم تدخن تموت من القهر..

القهر، مفردة عاشت معي سنوات طويلة، لو يعرف السائق حكايتي لمات من القهر !

ساعتان مضت، والركاب الذين استسلموا للنوم لم ينتبه منهم أحد، ثمة عدد من العجلات العسكرية المحترقة على جانبي الطريق، قال السائق أنها عجلات عراقية تركها الجنود وهربوا، التقطت عيني سيارة ايفا كالتي تركتها في الصحراء، وتذكرت زملائي، وارتسمت صورة العريف قاسم في مخيلتي وهو يردد: " نحن في فوّهة نار ولا مفر من القدر"..تذكرته وهو يسلمني الورقة التي قال انها وصيته وطلب مني ان لا افتحها الا بعد ان تضع الحرب أوزارها، ولكن، هل وضعت الحرب أوزارها..؟ عادة عندما تنتهي الحروب يعود المقاتلون الى بيوتهم ويبدأ نهار جديد بلا موت الا ان نهاراتنا لا تبدو كذلك، نهارات من الذل والفجيعة والخنوع، نهارات مليئة بدموع الأمهات ونحيب الأيتام وصرخات الضحايا، وليال طويلة لا تنتهي الا بعد ان تستل أرواحاً من

أجساد غادرتها الأحلام، هل وضعت الحرب أوزارها..؟ هل انتهى كل شيء..؟

عبر السائق بنا جسراً ترابياً شيّده الأهالي بديلا عن الجسر الذي يبدو ان هناك من قام بتخريبه، مياه النهر أراها تجري سريعاً عبر أنابيب دفنت تحت التراب فيما توقفت سيارة في الجانب المقابل بانتظار عبورنا فالجسر لا يسع الا لسيارة واحدة ذهابا او اياباً. قال السائق ان جميع الجسور الكبيرة قد دمرت مثلما دمرت مؤسسات الدولة.

قلت له: ما علاقة المباني بذلك..؟

قال: الأمريكان فسحوا المجال للناس ان يفرهدوا كل ما في دوائر الحكومة، لم يبق شيئاً، وهناك من حلل سرقة الأجهزة والمواد من تلك الدوائر لأنها من أموال الشعب ومن الأفضل ان تعود للشعب..

ضحكت في سرّي، وأنا اسمع من السائق مفردة "فرهود" تلك التي نحتها الناس يوم بدأت زمر من الفقراء بالانقضاض على أملاك اليهود في زمن اندثر، وفرهدوا كل ما هو موجود في المتاجر الكبيرة، مواد غذائية وأثاث وغيرها، ويبدو ان الكرة قد عادت ولكن هذه المرة باتجاه دوائر الحكومة، يقول السائق حتى الأبواب والشبابيك لم تنج، كل ذلك حدث برعاية أمريكية وبريطانية، وهناك من يقسم أنهم حموا اللصوص وهم يكسرون خزانات المصارف، كانت الأموال تنقل بأكياس إلى جهات غير محددة، كل شيء حدث بسرعة واختلط الحابل بالنابل، اختلط الفقراء والمحتاجون باللصوص وقطاع الطرق، الفقراء الذين يبحثون عن الخبز باللصوص الذين سرقوا المصارف.

استأذن السائق الركاب بالتوقف لشراء علبة سجائر من دكانة صغيرة بنيت من القصب على حافة الطريق، كان الطفل الجالس على صفيحة صدئة يرتجف فرط البرد، سمعت السائق وهو يقول له: "شغّل عقلك يا بني، ضع في الصفيحة بعض الأخشاب وأوقدها ناراً وتدفأ بها".. رد عليه الطفل: "كيف سأجلس على الصفيحة إذا كانت ساخنة؟!". ضحك السائق بينما ترك الطفل وهو يحدق به مندهشاً..

الحديث عن الحرب عاد الى أجواء السيارة، والركاب بعد ان استفاقوا راحوا يكررون أحاديثهم وكأنها تتمات لما سبق، قال الراكب الذي يبحث عن ذويه في سجن بوكر أن أحد جيرانه يعمل مترجماً لدى الأمريكان، وهو ينتظره في مدينة أم قصر المحاذية للخليج، ويستطيع أن يتوسط له عند المسؤولين لمعرفة فيما اذا كانا محتجزين هناك، ورغم عدم قناعة السائق بما قاله الراكب وبدا ذلك واضحاً من نبرته وهو يرد عليه بلهجة فراتية قائلاً: "عمي إستر على صاحبكم لا يسرحونه!".

انتهت الثلاث ساعات ولم نصل، اعترضتنا الجسور المقطوعة، والسيطرات في مداخل المدن التي مررنا بها، الطريق الذي قطعناه يسمونه "الطريق السريع" وهو ليس سريعا بما يكفي، يقول السائق انه كان يسير بسرعة تتجاوز 120 كيلومترا بالساعة، الا انه الآن لا يستطيع السير الا بالتسعين، وهي سرعة غير كافية في طريق طويل.. بدأ التعب يأخذ طريقه لجسدي، والملل راح يطوقني، شعرت بنوابض المقعد الذي أجلس عليه تأكل عظامي، حاولت ان أرفع

جسدي فاصطدم رأسي بسقف العجلة.. مد السائق يده نحو وسادة وضعها خلفه، سحبها بصعوبة بعد ان انحنى على المقود، قال: "خذها وضعها تحتك". أخذت الوسادة، وحدقت بالنقش ذي الألوان المتداخلة التي شكلت وردة كبيرة أحاطت بها ورقتان بهت لونهما، لم تكن رائحة الوسادة التي انحشرت في أنفي الا خليط من الوقود وروائح أخرى لم اشتمها من قبل، وضعتها تحتي فأحسست بارتياح، نظر السائق لي وقال:

– الآن أفضل..

أجبته:

– أفضل من النوابض

كل مدينة نمر بها أرى ذات اللافتات وكأن الناس فيها اتفقوا على وضع شعارات تختلف كثيرا عن الشعارات التي كانت ترفع من قبل والتي لم يبق منها الا خطوط طليت باللون الأسود.. مددت يدي في جيبي وتحسست المظروف الذي أعطاني إياه العريف قاسم، فضول كبير شدّني لان أخرجه واقرأه الا ان صوت انفجار إحدى عجلات السيارة غير بوصلة فضولي واشغلني، ترجلنا من السيارة بعد ان ركنها السائق على حافة الطريق، ساعدناه بتغيير العجلة، الا انه بدا منزعجاً حين رأى شظية هاون وقد مزقت جزءا كبيرا من عجلة سيارته، أعادها الى السيارة وهو يتضرع الى الله ان لا يحصل للعجلات الأخرى ما حصل لتلك..

انتهت الساعات الثلاث ولم تنته المسافة، قال احد الركاب للسائق بلهجة عراقية (سايقنا دوس زايد، إدفعها، على هذا الحساب ما راح نصل الا المغرب).. لم يقل السائق شيئاً واكتفى بالتحديق به عبر المرآة الأمامية..

الليلة التي قضيتها في منزل ناصر كانت ليلة طويلة وتمنيت ان تنتهي قبل ان تداهمنا قوة أمريكية بعدما سمعت من الشباب وهم يطلبون من ناصر ان يكون يقظاً فالمعلومات تقول ان الأمريكان سيقومون بمداهمة المنازل بحثاً عن المقاومين، هكذا يسميهم ناصر، ولم أسأله حينها عن كل ما حدث أمامي كما لم يطلب مني ناصر ان أحفظ سر الشباب ولا اعرف من أين جاءته الثقة بجندي عائد من الصحراء، هذا الأمر وضعني إزاء ما كنت مقتنعا به ان للعراقيين فراسة تجعلهم يعرفون مع من يتحدثون، بصراحة كنت احتفظ في نفسي بسؤال لم اتجرأ في طرحه، سؤال أقلقني كثيرا: كيف تستطيع زمر الشباب طرد الأمريكان من البلاد بعدما توغلوا فيها واستمكنوا في وقت لم تستطع فيالق من الجيش العراقي إيقافهم؟ ربما الأيام المقبلة ستجيب عن تساؤلي.

في الطريق الممتدة نحو الجنوب وقع بصري على لوحة خضراء مؤطرة بلون ابيض مكتوب في وسطها "محافظة البصرة ترحب بكم".. شعرت حينها اني قاب قوسين من منزلي، ها آنذا استنشق هواء المدينة التي ظننت اني لن أعود اليها، هذا الترحيب الخفي زادني أملاً في ان ألقي كل ما خزنته ذاكرتي من أحداث الأيام الماضية بعيداً وابدأ مرحلة أخرى من حياة تحت ظل احتلال لا نعرف كم سيدوم، كان والدي يحدثني عما سمعه من أهله عن الاحتلال

البريطاني للعراق، يقول ان جنوداً هم خليط من البريطانيين والهنود يطلق عليهم اسم "الليفي" وهناك من يسمي الهنود منهم باسم "الكركة" كانوا يتمركزون في قلب المدينة، وقد بنوا لهم مقبرة كبيرة في شمالها مبنى دفنوا فيها قتلاهم، لم يكن دخولهم بالأمر السهل، فقد تصدت لهم العشائر في معركة كبيرة بمنطقة كوت الزين ومعركة أخرى في الشعيبة شارك فيها مقاومون يطلق عليهم اسم "الجهاديون" لكن أسلحة البريطانيين كانت اقوى، اطفأت جذوة جهادهم ولم ينهضوا من جديد الا في عام 1920 في ثورة كبرى لم تتمكن من الاحتلال هي الأخرى.

الطريق تمتد فيما بانت قطع الحديد الصدئة، بقايا عجلات عسكرية، على الجانبين، مقبرة كبيرة للآليات تمتد لمسافات بعيدة، مختلف الآليات، صغيرها وكبيرها، يبدو أن معركة جرت في المكان، لم أر الا سيارة او اثنتين جاثمة على الطريق السريع فيما البقية تمركزت في المساحات الترابية، يبدو ان أمطار الأيام الماضية قد غسلتها تماما ولم تعد رائحة البارود موجودة.

أعاد السائق تشغيل الراديو، وراح يبحث بين أرقام الموجات عن إذاعة، قلت له:

– هل تبحث عن إذاعة بغداد..؟

قال:

– توقفت الإذاعة منذ شهور، لكن هناك إذاعات أخرى بدأت البث، في كل مدينة ثمة إذاعة..

قلت مستفسراً:

– هل هي إذاعات حكومية..؟

ابتسم السائق ودون أن يلتفت الي قال:

– بل هي إذاعات حزبية، كل حزب صار يمتلك إذاعة يروج لأفكاره..

صوت متقطع سمعته ينطلق عبر جهاز الراديو، ثمة مذيع يتحدث، الا ان الوشوشة لم تمكنني من فهم ما يقول، حاولت ان أصغي له وأجمع بعض الكلمات التي تصل متقطعة، فهمت أنه يعطي دروساً دينية، قال السائق:

– بعد قليل يكون الصوت جيداً..

لم أجبه، وتركته يكمل جملته:

– والله ضاعت علينا، قبل كانت إذاعة واحدة وما نفتهم منها شيئاً واليوم العشرات من الإذاعات وأيضا لم نفتهم منها شيئاً..

ضحك وشعرت بمرارة ضحكه، وراح يشير الى المرآة التي أمامه قائلا:

– أترى أولئك الناس الذين هم خلفي، هم نائمون الآن، هكذا نحن نيام وحين نصحو لا نعلم ان كنا قد وصلنا الى المكان الآمن او لم نصل...!

كلماته هذه فتحت أمامي مخاوف فيما يفكر به عامة الناس، هذا السائق يعرف ما وقعنا فيه من لعبة، يدركها جيداً وربما يحتفظ بأشياء أجهلها، في جملة واحدة استطاع ان يختصر ما نحن فيه، نيام!.. هكذا إذن، الشعب غافٍ، لكن ليس كل الشعب، هناك من هو صاحٍ، ناصر والشباب الذين هم معه وهناك كثير منهم في مناطق متفرقة من البلاد، لكن هم قلّة وسرعان ما تخبو جذوة جهادهم كما حصلت في العشرينيات.

بيوتات المدينة بدأت تظهر رويداً رويداً، من بعيد هناك مفرزة عسكرية تقف عند الجسر المؤدي الى المطار وثمة طابور من السيارات، توقفنا عند آخر سيارة وانتظرنا دورنا في العبور، عدد من الجنود يقفون بعيدا عن الشارع بينما وقف واحد منهم حاملا أوراقا وهو يتفرس بالوجوه، حين اقتربنا منه لمحت صوراً لأشخاص ربما كان يبحث عن مطلوبين، لم يسأل السائق واكتفى بالنظر الى داخل السيارة عبر نوافذها وأشار الى سائقها بالعبور..

التفت السائق الى الركاب صائحاً:

– صلوا على النبي..

راح الركاب يرددون صلاتهم، بينما انطلقت السيارة مجتازة الهمر التي قطعت نصف الطريق.

(19)

البصرة تبدو مثل فرس أنهكه الجري، شعرت بالثقل الجاثم على صدرها، تلك المدينة الباسمة لم أرها كذلك، كانت متعبة، مغبرة، تغيرت ملامحها، ثمة بيوت لا اعرف متى تم بناؤها، بيوت متداخلة غريبة، أتذكر ان المكان الذي مررت فيه كان ساحة يلعب فيها الأطفال كرة القدم الا إنها الآن اختفت، ولم يعد الأطفال يلعبون، الشوارع مزدحمة بسيارات وعربات ودراجات بخارية، إشارات المرور متوقفة ولا وجود لشرطة المرور، كيف يمكن لمدينة ان تعيش هكذا..؟

ترجلت من السيارة وأنا أتنفس الصعداء، ها آنذا أعود من جديد بعد رحلة شاقة لم أكن أتوقع اني سأكون في حضن مدينتي، لا اعرف ما الذي حدث فيها الا أني متيقن انها تعرضت خلال سنواتها لأحداث ربما هي أقسى مما

تعرضت له، هذه المدينة قدرها ان تتألم وتنتفض في فترات متفاوتة، تغفو على أنين الأمهات، وتستيقظ على أدعية الآباء، الشارع الترابي يأخذني حيث منزلي فيما تتراءى لي صور الجنود الذين تركتهم في العراء وهم يملأون جيوبهم بأحلامهم المؤجلة، ربما هناك من يحسدني لأنني تركت ذلك المكان المنعزل أو هناك من يفكر أني لن أتخلص من رحلة قاسية، فكرت بالعريف قاسم، وورقته التي ما زالت تحتفظ بأسرارها في جيبي، مضى كل ذلك مثل حلم سريع، الصحراء المترامية الأطراف، جميلة والشيخ ومبتور، سجن نقرة السلمان، كل الأمكنة التي مررت بها والساعات التي قضيتها تحت المطر، في ذلك المكان البعيد، لا أحد معي الا الله وبندقية ما كنت متأكداً من اشتغالها.

أكوام القمامة تملأ المكان، وثمة عربة يجرها حمار ملئت ببقايا حديد وعلب مشروبات غازية فارغة، وعجوز لمحتها تغوص بين القمامة وهي تبحث فيها، شدتني صفحة من جريدة كانت الرياح قد دفعتها نحوي، التقطتها وحدقت بالصور المنشورة فيها، وجوه لا أعرفها، وعناوين ما تعودت عليها، كانت الجرائد قبل الغزو تحمل في صفحتها الأولى صورة كبيرة واحدة، هي صورة الرئيس، ببزة عسكرية تحمل رتبة هي الأعلى في البلاد وعينين ثاقبتين وشارب كث وعنوان رئيس واحد يبدأ بجملة واحدة "الرئيس القائد حفظه الله".. ترى هل يستجيب الله لدعاء الجرائد ويحفظه من بلاء الأمريكان..؟ الرجل الذي يرتدي بدلة أنيقة بوجه أملس بلا شارب أخذت صورته المكان المخصص للرئيس، خمّنت أنه الرئيس الجديد، قرأت في أسفل الصورة " غارنر يجري لقاءات مع القادة العراقيين".. أي قادة هؤلاء ومن هو غارنر، هل هو نسخة

من الجنرال مود، أسئلة كثيرة تدور في رأسي، وضحكت في سري وأنا استعيد ذاكرتي لأيام ما كنا نظن فيها أن النظام سيتغير، كنا متيقنين أن قدر البلاد أن تكون تحت سطوة الرئيس وعائلته، كأن الزمن قد توقف عند تلك العائلة، وما زاد من تيقننا كثرة الموالين له، ترى اين ذهب أولئك الناس، الرفيق فلان والرفيق علان، أين ذهبوا، هل زجوا في السجون، هل سحلوا في الشوارع كما كان يحدث في كل انقلاب مر على البلاد، هل هربوا الى الخارج، هي دورة الزمان تلك التي مرت سريعاً، معارضون في السلطة وحكام في المعارضة، تبادلوا الأدوار فيما الناس تنتظر قدرها شاهدة على المآسي.

كل ما نشر في الجريدة لم أعد افهمه وكأني أعيش في عالم آخر، عالم كل ما فيه يختلف عن عالمي الذي عشته، صحيح ان أغلب حياتي قضيتها في العسكرية والحرب، ما ان تنتهي حرب حتى تبدأ أخرى، هكذا هي منذ عام **1980** حتى اللحظة التي غادرت فيها سرية زرع الألغام وربما لم تنته الحرب بعد فالشباب عازمون على ان يبدأوا حرباً أخرى ضد الغزو، وربما هناك جهات غيرهم تقوم بعمليات عسكرية، إذن الحرب لم تنته، ولم تجف دموع الأمهات اللاتي ينتظرن أبناءهن كل مساء، ولا الزوجات اللاتي ترملن، هو ذا قدرنا، ان نعيش حاملين قصصاً أبطالها غادروا بأجساد مخضبة بالدم.

رميت الجريدة وسرعان ما امتدت لها يد الريح وحملتها بعيداً بكل صورها، حيث أكوام القمامة وكأنها لا تريد أن تغادر المكان، بالامس ما كنا لنجروء ان نرمي الصفحة الأولى من الجريدة في القمامة كي لا نلوث ابتسامة الرئيس العريضة ويا ويل من يضبط متلبساً برميها في حاوية الأزبال سيكون نهاره

أسوداً وستمتد العقوبة الى جميع أهله وجيرانه ومن سمع ورأى دون أن يبلغ الفرقة الحزبية.. كان الناس يستخدمون الصفحات الداخلية وهي عادة صفحات الثقافة والفن لمسح زجاج النوافذ او يتخذونها سفرة للأكل، أربع جرائد كانت تصدر يومياً وهي تتشابه بتصميمها وألوانها والمواد المنشورة.

الطريق الى منزلي يمر عبر نهر صغير الا ان ذلك النهر الذي كنت أصطاد فيه الضفادع يوم كنت صغيراً غاب عن الصورة، وبنيت فيه بيوت من الصفيح، أنواع وأحجام وألوان مختلفة منها، كيف استطاع الناس من جمع كل تلك الصفائح، كم من الوقت قضوه في جمعها وقطعها وتصفيفها بالطريقة التي هي عليه،لمحت واحدة من تلك الصفائح كانت علامة مرور خضراء تشير الى اتجاهات مختلفة للمدينة، علامة مرور تحولت الى نافذة في بيت الصفيح ذاك، وربما استخدموا في الداخل اشارات المرور الضوئية، وضعوا الاحمر في غرفة النوم والاخضر في غرفة الضيوف اما المصباح الاصفر ربما وضعوه في الحمام، ضحكت في سري وأنا ألهي نفسي بتلك الافكار السخيفة، حتى ظننت ان صاحب بيت الصفيح يعمل في دائرة المرور.. سؤال خطف في رأسي: هل وصل الحال بالناس الى ان ينتزعوا علامات المرور من الشوارع..؟

في مدخل شارعنا انتصبت صورة كبيرة كتب تحتها بخط أخضر أنيق "أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام" أتذكر ان في هذا المكان كانت صورة للرئيس يوم أهداها أحد جيراننا له في يوم ميلاده، وهي عادة استمر عليها الناس للتقرب من السلطة وربما للحصول على أموال، فالإسبوع الأخير من شهر ابريل من كل عام كان اسبوعاً مميزاً حيث تنتشر المصابيح الملونة

والأعلام في الشوارع والساحات، الصورة التي أهداها جاري خط تحتها جملة باللون الأحمر: "هدية أهالي المنطقة للرئيس القائد صدام حسين حفظه الله ورعاه".. يومها كنت أتساءل لماذا كتب الحروف باللون الأحمر، هل هو إشارة لنهر الدم الذي يجري في العراق بعد حروب أكلت معظم الشباب، أم كان لوناً يثير انتباه المارة ويمكن قراءة الجملة من بعيد مثلما قال لي صديق يعمل بحاراً أن اللون الأحمر يتصف بأطول طيف موجي ويختلف عن بقية الألوان ويمكن رؤيته على مسافة 8 ميل بحري! لهذا يستخدم بكثرة في أجهزة الإشارة..

هذا المكان هو خلاصة ما جرى، ان تتغير الشعارات والصور، وتغيرت معها النفوس، منذ حادث قتل الراكب معنا في السيارة قبل ساعات وأنا أعيش حالة من الذهول، كيف يمكن ان يكون الموت رخيصاً هكذا، وتزهق الأرواح بهذه السرعة، كيف يمكن أن يحصل أولاد القتيل على حقوقهم، تذكرت حادثاً مضت عليه سنوات حين قتل أحد الشباب صديقاً له عن طريق الخطأ وهما يتباريان في التصويب بمسدس توكاريف، لم تمر حينها الحادثة على خير، امتدت النار الى أفراد العشيرة، ولم تنته الا بعد ان تدخل الخيرون بينهما وتركت الحادث إصابتين من الجانبين، وأجبرت العشيرة على دفع الدية ونفي عائلة القاتل الى خارج المنطقة فيما تم سجنه 15 عاماً.. تلك الحادثة كانت عن طريق الخطأ، اما قتل الأمريكان للراكب فقد كانت عمداً، فكرت في ان ابحث عن عائلة القتيل وأكون شاهداً على ما حصل بعدما تفرق بقية الركاب وذهب كل واحد منهم الى شأنه لكن من يضمن لي أن أهله سيتركوني وشأني،

ألم أكن مقتنعاً ان ما حصل في البلد غيّر كل النفوس ولم يعد الحال على ما هو عليه..؟

لا أعرف لماذا أصبحت المسافة ما بين موقف السيارات ومنزلي طويلة، كنت أقطعها بأقل من هذا الوقت، وما كانت البيوت بالكثرة التي هي عليها اليوم، كان الشارع الترابي الذي لم يكتمل تبليطه يمتد حتى الجسر الحديدي الصغير الذي يكفي لعبور سيارة واحدة، الجسر الحديدي لم يعد موجوداً بعد ان دفن الأهالي النهر، والشارع صار ينتهي عند بيوت الصفيح، كل شيء تغير بسرعة فائقة وكأني في مدينة أخرى ليست تلك التي نشأت فيها، حتى الناس الذين صادفتهم في طريقي لم أرهم من قبل، لا اعرفهم، وجوه غريبة جاءت من قرى وأرياف وبنت لها بيوتاً وزرائب لحيواناتهم، تمنيت أن يصادفني أحد أصدقاء الأمس لأعرف منه ما جرى للمدينة التي تحولت بقدرة قادر الى هذا الحال، مشيت وأنا أتفحص الوجوه والمكان، من بيوت الصفيح الى الزقاق المؤدي لمنزلي، كان الزقاق واسعاً الا اني أراه ضيقاً بعدما وسّع الناس بيوتهم وبنوا فوق الرصيف، أنه أمر مؤسف ومضحك ان ترى المكان يضيق وتتداخل المنازل فيما بينها، لم أغب طويلا الا ان ما أراه يشعرني بأني غبت دهراً، تذكرت أمي وهي تقص لي حكاية أهل الكهف، أناس ناموا مئات السنين ليستيقظوا بعد ذلك وقد تغيرت الناس والأمكنة، هي نفس حكايتي بالضبط قد تختلف عنها بأني لم أنم بل بقيت مستيقظاً طوال الفترة الماضية، وفيما تغيرت مدينة أهل الكهف بفعل الزمان تغيرت مدينتي بفعل تغير النظام، واختفاء العصا التي

تحبس رغبات الناس وتروضهم الى حيث ما يريد، رددت مع نفسي قول الشاعر (لا تشتري العبد الا والعصا معه) وتساءلت: هل كنا عبيدا حقاً..؟

في الزقاق الذي غاب عنه الرصيف ثمة صبية يلعبون، يصرخ بعضهم على بعض، فيما شكّل ثلاثة منهم مفرزة أشبه بالمفرزة العسكرية، وضعوا حجراً في منتصف الشارع، صاح أحدهم بي:

– هل عندك بطاقة..؟

ابتسمت وأنا أرى البندقية البلاستيكية التي يحملها، أجبته:

– نعم، لدي بطاقة..!

مد يده نحوي وهو يردد:

– طيب أريني إياها..

لا أعرف لم استسلمت لهم، مددت يدي الى جيبي وأخرجت بطاقتي وقدمتها له.. تفحصها الصبي بعينيه الذابلتين وراح يقلبها، رفع رأسه قائلا:

– بطاقتك تالفة عليك باستبدالها..

قلت:

– كيف استبدلها..؟

قال ضاحكا:

– في سوق الحرامية يمكنك ان تجد بطاقة جديدة...

ضحك الصبي الثاني بهستيريا لم يتوقف حتى بعدما دفعه زميله بقدمه الحافية..قال لي:

– نحن نمزح معك..

أعدت البطاقة الى جيبي وابتسمت لرئيس المفرزة وقلت له مستفسراً:

– هل أنتم شرطة..؟

قال:

– نحن ميليشيا...

لا أعرف من أين أتى الصبي بهذه المفردة، ميليشيا، أعرف أنها قوات مسلحة غير نظامية كانت بعض التشكيلات المعارضة للنظام قد أسستها وعملت بعضها في منطقة الأهوار، هذا ما أخبرني به صديق كان ينقل أخبار تحركات النظام لهم، فهو يزور المدينة بين فترة وأخرى، يجلس في المقهى ويستمع لأحاديث بعض ممن يحسبون على النظام، يجمع ما يحصل عليه من معلومات ثم يغادر فجراً الى الأهوار في رحلة لا تخلو من المخاطر يوم زرع النظام مخبريه في كل مكان، ربما كان ناصر والشباب الذين معه هم ميليشيا يمكن أن يتوسعوا بها لتشمل مناطق أخرى ما دام سلاح الجيش الذي انتهى ملأ البيوت، سمعت ناصر يقول ان الأمريكان سرّحوا الجيش، جميع تلك الفيالق ذابت في ليلة وضحاها، الآلاف من الضباط والجنود غادروا ثكناتهم، هناك من عاد الى منزله وهناك من سلم نفسه، هذا ما قاله لي ناصر لكن لا أحد يخبرني عن أولئك الجنود، زملائي، الذين تركتهم في الصحراء المترامية الأطراف..

عدد من النسوة يجلسن على عتبات البيوت ويتنادمن بكلام لم استطع سماعه، اعرف أن أغلب الأحاديث تدور عن الحرب، صارت النساء تعرف عن الحرب أكثر مما يعرفن عن المطبخ! وتعدت العدوى، عدوى الحرب، الى

الأطفال فهم يعتبرونها لعبة، يحملون بنادق خشب وسكاكين بلاستك يوجهونها الى بعضهم، لا تعرف من يصاب منهم فكل الرصاصات لا تصيب لا بل هناك من يكركر ويضحك بهستيريا فهو مستمتع بلعبة الحرب بالضبط مثل الذين يحكموننا يستمتعون بالحرب لأنها لا تمتد الى أبنائهم ومنازلهم بل تأكل أجساد الفقراء وتهصر قلوب أمهاتهم، هم يعتبرون موتنا انتصارا فيما يملأ الحزن بيوتنا. في الحرب الأولى كان زقاقنا فارغاً بعدما هجره الجيران، غادروه الى مناطق آمنة، عدد من الصواريخ سقطت فوق البيوت وبالرغم من أنهم أعادوا البناء الا ان أثر الشظايا ما زال واضحاً في الشرفات العالية لم يمح أثرها الناس لتكون شاهدة على مأساتهم في زمن الخراب.

قرب بيتنا لمحت أمي واقفة عند الباب، مثل كل النساء اللاتي ينتظرن الغائبين، بكيت وأنا أراها تهلهل راكضة بثوبها الأسود نحوي، ألقيت حقيبتي التي ما فارقتني خلال الرحلة، وركضت نحوها وسط ذهول النساء اللاتي مازلن يجلسن أمام أبوابهن، احتضنتني بقوة، قبلتني بشوق، شعرت بأمان لم أشعر بمثله من قبل، تجمعت النسوة حولنا وهن يهلهلن ويباركن أمي فيما كان الدمع ينهمر من عيني مثل ذاك اليوم الذي ودعتها فيه.

(20)

اليوم الأول لمكوثي في المنزل لم يكن عادياً، كثير من معارفنا جاءوا من مناطق بعيدة، وجوه أكاد أن لا أعرفها، حين سمعوا بعودتي، ومثل هذه الأخبار تنتشر بسرعة بين الأهالي، جاءوا، هناك من يسأل عن ابنه في ظنّه أن الجندي العائد من آتون الحرب يعرف كل شيء عن الجنود المنتشرين في الصحراء والهضاب والسهول والجبال وهو لا يعلم أن الحرب الأخيرة ما كانت حرباً متكافئة، ولا يعلم أني لم أطلق رصاصة واحدة فيها.

المنزل لم يتسع للجميع، رجال ونساء وأطفال، حيث فتح جارنا داره لاستقبال المزيد من القادمين من مناطق بعيدة، كان خبر عودتي ينتشر في المناطق المجاورة

بشكل سريع، صرت أكثر شهرة من أبطال السينما، في كل مرة أعيد قصتي وأختصرها في مرات عديدة، وتمنيت لو كتبتها على الحائط لأتحاشى الاعادات المتكررة، ومثلما انتشر خبر العودة انتشرت أيضا حكايتي وهناك من أضاف عليها من تخيلاته، منهم من كان يقول ان الامريكان لم يتمكنوا منه لانه يحمل (خرزة سليماني) خدامها من الجان وهم الذين حموهن وهناك من راح خياله الى ابعد من هذا ونسج حكاية تقول (عندما بدأت الحرب وراحت الصواريخ تنزل على المدن كالمطر كانت وحدته العسكرية في مرمى تلك الصواريخ، قتلت الجميع الا هو فقد كتب له القدر عمرا جديدا بسبب طائر كبير بحجم الدبابة او اكبر منها هبط عليه في لمحة البرق وانتشله من بين النيران والشظايا)، هكذا صرت بطلا في حرب لم أخضها ولم اشهد عملياتها.

الناس الذين يزورونني يسألونني ذات السؤال: كيف استطعت التخلص من الأمريكان..؟ وكأنهم يرغبون في موتي أو أسري، وفيما أعيد عليهم حكايتي يحاولون إشباع مخيلتهم بالبطل الذي أمامهم،هم تشبّعوا بتلك الحكايات التي يرويها الناس ولا يرغبون في اقناع انفسهم بالرواية الصحيحة التي سمعوها مني هكذا هم يخلقون بطلا في مخيلتهم وهم لا يعرفون أن الحرب الجديدة لم تكن حرباً أنما هي صفحة أخيرة من صفحات نظام مزقتها آلة الحرب الأمريكية.. جميع من تحلقوا حولي كانوا فرحين، وراح بعضهم يسرد حكاية عن مشاهدته للجنود الأمريكان بينما يرده آخر أنهم لم يكونوا أمريكان إنما بريطانيون فهو يفتخر أنه استطاع ان يتحدث مع جندي بلغته.

مضى إسبوع، والناس تتوافد على منزلي، كنت بحاجة الى الراحة بعض الوقت لكني لم أحظ بها، تذكرت يوم عاد قريب لي بعد أسر دام تسع سنوات في معسكرات الأسر الإيرانية، بقينا عنده اسبوعين، لم يستطع خلال تلك الأيام ان يحظى بنومة هانئة، بالضبط مثل حالي اليوم، وأنا أكرر الحكاية ذاتها حتى مللتها، كان يسرد حكايته منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بالأسر خلال معركة غير متكافئة في منطقة سربيل زهاب، يوم اقتادوه وعشرين من زملائه وهم كل ما بقي من القوة الدفاعية الى حافلة كبيرة، وساروا به حيث العمق الإيراني، لم يكن يتوقع حينها أنه سيقع في الأسر بعدما انهالت عليهم أعداد هائلة من الصواريخ التي هدمت مواضعهم ويستذكر عددا من أصدقائه الذين قضوا ودفنوا في المواضع المنهارة.. كانت حياة الأسر صعبة، وبقي أكثر من ثلاث سنوات دون أن يصل له الصليب الأحمر الدولي الذي كان وسيطا بين الجانبين، تسع سنوات قضى منها عاما كاملا في السجن بعد اتهامه ومجموعة من الأسرى بالعصيان في أقفاص الأسر بعدما وجدوا تعاملا قاسيا من ادارة المعسكر حيث وضع آمر المعسكر عيوناً له بين الاسرى يخبرونه بكل ما يحدث في الاقفاص، احاديثهم، افكارهم، امتعاضهم، احلامهم..كل ذلك يرسل بتقارير سرية يقتادون على اساسها الاسرى الى غرف التعذيب الخاصة الا انه بعد ان عذّب تم احالته الى المحكمة ومن ثم زج في السجن، ولم يكن السجن بأحسن حال من معسكر الأسر، ويوم أعلن عن توقف الحرب في عام 1988 كانت الفرحة كبيرة، وبدا الأمل أكثر اتساعاً في رؤية الأهل، إلا أن الأمل بدأ يتضاءل حين توقف تبادل الأسرى وأعيد بعض من جهزوا أنفسهم

للعودة الى أقفاصهم وهناك من لم يحتمل الصدمة ومات بسكتة قلبية بسبب خيبات الأمل المتعاقبة.

يوم أعيد قريبنا من الأسر احتفلنا به أسبوعا كاملاً، وقدمت الاضحيات وبنينا سردقاً كبيراً لاستقبال الناس، كان عيدا حقيقيا لكل الناس.

تلك السنوات مرت بكل ما تحمله من خيبات أمل، وتعاسات وانتكاسات، الا أنها مرت وصارت سطورا في حكايات تناقلها الناس، وحكايتي أيضاً، ستكون سطرا في تأريخ حياتي، كنت كمن استيقظ بعد كابوس، فزعاً، مهموماً، لا أعرف ما الذي حلّ بأصدقائي الذين تركتهم في الصحراء، هناك من تربطني به صداقة قوية، وحتى الذين هم بعيدون عني لم انسهم.

ذات مساء تذكرت كلمة العريف قاسم وهو يسلمني مظروفا قائلا: (هذه وصيتي خذها معك، لا تفتحها إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها...)، يومها كان مهموماً، يدخن بكثرة، ويصمت في أغلب الأوقات، هذا الرجل النحيف كان بطلاً فبالرغم من كل المآسي بقي صامداً، لم أسمع في حياتي أن هناك من أخلص لزوجته مثله، لم يتزوج بعد موتها بالإشعاع وفاءا لها.

بحثت عن المظروف الذي سلمني إياه واحتفظت به طيلة الأيام الماضية، ترى ما الذي يوصيني به العريف قاسم، وهل أستطيع تنفيذ ما يطلبه مني..؟ أسئلة كثيرة تباغتني وأنا ابحث عن ذلك المظروف، وجدته بين طيات ملابسي في الحقيبة التي لم تغادرني، مظروف عاش معي كل تلك اللحظات الصعبة التي مررت بها، وشهد أحداثها، ومثلما يقول أهلي لو كان له لسان لأخبر الناس ما دار عليّ في تلك الرحلة الشاقة.

مددت يدي، وسحبت المظروف، وتراءت لي صورة العريف قاسم، ذلك الإنسان الذي قضى حياته بين الثكنات العسكرية، وشهد حربين طاحنتين لا ناقة ولا جمل له فيهما إلا أنك حين تلتقي به لن ترى إلا إنساناً مسالماً محباً للسلام ويحلم بحياة هادئة بعيداً عن كل ضوضاء.

فتحت المظروف بحذر وسحبت الورقة البيضاء التي بداخله، ورقة صغيرة من دفتر مدرسي، طويت من منتصفها، فتحتها وظهرت لي قصاصة أخرى بداخلها، إذن المظروف لم يحتوِ على ورقة واحدة، أنما ورقتان، انتابني فضول في أن أقرا ما كتبه العريف قاسم في القصاصة، وفوجئت أنه كلام موجه لي، يقول فيه: (أتمنى لك حياة سعيدة بلا حروب ولا دمار، ستصل لأهلك سالماً غانماً وأنا على يقين أنك ستجتاز هذه المرحلة الصعبة لكنك ستنجو، في الورقة الثانية وصيتي لك لأني اعتبرتك ابناً لي وما أطلبه منك أن تنفذ الوصية بكل ما جاء فيها، لا أريد أن أتعبك لكنني وجدتك فرصتي في تحقيق ما في نفسي، ذلك الأمل الذي ما زال يشاكسني رغم الخيبات التي عشتها، واعلم يا ولدي أن ما أوصيت به لك هو من إرادتي ولا دخل لأحد في هذا ..).

قبل أن أقرأ ما تركه لي العريف قاسم من وصية دارت في رأسي أفكار كثيرة، أية وصية تلك التي يوصيني بها، وما الذي يطلبه مني كي أحقق له أملا راح يشاكسه رغم خيباته كما يقول، هذا الرجل خزانة كبيرة من الأسرار، يحتفظ بأمور أشبه بالطلاسم، ما أعرفه عنه قليل، زوجته التي بقي وفياً لها، وابنه الوحيد الذي فارقه في وقت مبكر، أما غير هذا لا أعرف عنه شيئاً لأنه ليس كثير كلام فهو إن تحدث فلا يقول كل شيء إنما يكتفي بالإشارة وعلى العاقل

أن يفهم كما كان يقول، حياته عبارة عن أسرار وربما لأنه موضوع تحت نظر الحكومة بعد حادث ولده الذي لم يقل سوى أنه اقتيد وزملاؤه للتحقيق.

فتحت الوصية ودب في أناملي خدر لا أعرف من أين جاء، تفحصتها جيداً، كان يوصيني أن أستلم داره وأضيء غرفها بعد سني العتمة، يقول أنه علّق مفتاحها في غصن شجرة صفصاف زرعها خلف الدار، وسجل ديوناً كانت عليه وهي مبالغ ليست كبيرة، للبقال وتاجر استلف منه لعلاج زوجته من باب براءة الذمة، وأخيراً يوصي أن أبحث عن ابنه وأن أجيء به الى الدار حتى لو كان رفاتاً ومن ثم أدفنه بالقرب من أمه.. وذيّل وصيته بعنوان داره.

الدار والديون والابن كل ما احتوته الوصية، لا أعرف هل هي وصية إنسان ميت أم حي، كان عليّ أن أبدأ بتنفيذها فثقته بي تجبرني أن أكون وفياً لكل كلمة سطرها في الورقة الصغيرة.

في التلفاز شاهدت صوراً نقلها مراسلون عن عائلات تبحث في العراء عن رفات أبنائها، نساء وأطفال وشيوخ، حملوا صوراً لمفقودين غابوا في مقابر جماعية، أعداد هائلة، نقلها التلفاز من مناطق مختلفة في العراق، فيما سرت إشاعة في زقاقنا أن أعدادا من المفقودين عادوا الى ذويهم بعدما وجدوهم في سجون تحت الأرض، لا أعرف مصدر الخبر، إلا أنه إشاعة من كثير مثلها انتشرت بين الناس، لكني لم ألتق بواحد من الذين عادوا بالرغم من أني سمعت امرأة تقول لأمي أنها شاهدت واحداً وصلت لحيته لقدميه! صارت الناس تؤلف حكايات غريبة لم تصل لغرابتها حتى حكايات ألف ليلة وليلة، حكايات من نسج خيال العامة وكرههم للنظام الذي حكمهم أكثر من ثلاثة عقود.

صورة تمثال الرئيس التي يعيد بثها التلفاز بين حين وآخر وهو يسحب بحبال وضعها جندي أمريكي في رقبته ومن ثم يخلع من قاعدته في ساحة الفردوس ويتراكض الناس خلف بقاياه يضربونه بكل ما يحملونه من عصي ونعل زادتني يقيناً أن الماضي انتهى ولا يمكن أن يعود، وانه طوى أوراقه بكل ما تحمله من مآس وعذابات، إلا أن الغريب في الأمر كيف ذابت تلك المؤسسات البوليسية المختلفة، مقار حزبية ومكاتب أمن واستخبارات ومخابرات فضلا عن فدائيي صدام، أين ذهبت تلك الأعداد الغفيرة التي كانت تخرج في تظاهرات كبيرة رافعة شعارات التحدي والموت لأمريكا، كيف ذابت بين ليلة وضحاها الفيالق الكبيرة وطيران الجيش والبحرية وحرس الحدود، أين اختفى المخبرون الذين كانوا يملأون الأزقة والحارات، كان واحدنا لا يستطيع أن يحكي حلمه خشية أن يسمع به المخبرون ويذهب جلده للدباغ كما يقول الناس، هكذا تحول البلد من قبضة حديدية الى انفلات كبير، تغير كل شيء ولم يستطع الناس فهم الواقع، غياب الدولة جعلهم يخربون المؤسسات لم تنج دائرة من العبث او السرقة، كل شيء تغير الناس والأمكنة أيضاً، إن انتقدت أحداً أو منعته عن فعل شيء يضر الآخرين فأنت تضع نفسك في ورطة لا تخرج منها إلا بشق الأنفس! من أصعب الأمور أن تجد نفسك مرمياً في عالم لا تنتمي إليه، هذا ما شعرت به بعدما استقرت بي الأمور، واستمعت الى حكايات الناس، غزو أجنبي وغزو من الداخل على الدوائر والمصارف الحكومية والأهلية، تهريب للنفط بحاويات كبيرة، كل شيء صار مشاعا، لم تسقط الدولة إنما سقطت الأخلاق معها.

الوجوه التي كانت خائفة وحذرة قبل الغزو غدت محتقنة ومتذمرة، على المدينة أن تمر بوقت طويل قبل أن تستعيد عافيتها، البنايات التي كانت هدفا لصواريخ الطائرات والشوارع المليئة بالأوساخ ومياه المجاري الطافحة والدوائر الحكومية التي لم تستقر بعد، كل ذلك يجعل من الصعوبة أن تعود الحياة لطبيعتها، مراكز الشرطة ما زالت مغلقة وأفرادها لم يلتحقوا بها بعد، ليس هنا سوى دوريات عسكرية لقوات الغزو التي تتعرض بين حين وآخر لهجمات من أفراد المقاومة وعقب كل هجمة تغلق المناطق والأسواق ويتصرف الغزاة بهستيريا مع الناس، كل شاب معرض للاعتقال، ، وكل عائلة يعتقل أحد أفرادها تعتبر مناوئة للعهد الجديد، هكذا سمعتهم يسمونه، العهد الجديد، ولم أر جديدا إلا في تغيير بعض الوجوه.

وصية العريف قاسم تجبرني أن أبدأ بتنفيذها، فالوقت يمضي ولابد من الذهاب للبحث عن منزله، العنوان الذي ذكره في الورقة جعلني أستعيد الذاكرة لليلة التي اجتزنا فيها مدينة السماوة، كان العريف قاسم يتأمل المنازل البعيدة، رأيت ساعتها عينيه وقد دمعتا، لم أسأله حينها إلا أني الآن تيقنت أنه كان يرى منزله غير البعيد، لم أكن يومها أعرف أنه يسكن المكان الذي اجتزناه بسيارة الإيفا العسكرية. الآن فهمت.

حزمت أمري، ملأت جيبي بالأوراق النقدية الجديدة هي كل ما جمعته أمي من راتب أبي التقاعدي، وبالرغم من خشيتها علي من الطريق الطويل الذي سأسلكه إلا أنها اقتنعت بعدما أخبرتها أني أنفذ وصية صديق ربما هو الآن في عداد الأموات. مددت يدي في جوف الحقيبة التي رافقتني وأخرجت التميمة

التي أعطتني اياها جميلة يوم غادرت خيمتها باتجاه المجهول وتذكرت كلماتها وهي تقول " خذ هذه، تميمة كنت احفظها من امي قالت لي ذات يوم اعطيها لمن هو في محنة ولا اجد احدا في محنة اكثر منك"..نظرت الى التميمة المحفوظة في قطعة قماش، لا أعرف ما بداخلها لكني متيقن الآن بها وبقدرتها على أن تكون حارسي في رحلتي الثانية.

اللحظة التي خرجت فيها من المنزل تذكرني بتلك الأيام التي كنت التحق فيها بوحدتي العسكرية وكعادتها كانت أمي تخرج خلفي وبيدها ماعون ملأته ماءاً لتلقيه على الأرض وهي تقرأ آيات وأدعية تحفظني من شر الطريق كما كانت تقول، خرجت فيما كان خيط الماء يتبعني، التفت للخلف لأجدها واقفة تراقب خطواتي، هكذا هي قلوب الأمهات ساحات صراع ابدي، يلذن بالصلاة والدعاء كلما باغت أولادهن الخطر، لم أرها باسمة في حياتي، كانت تخفي دموعها كي لا تؤلمني، وحين أحاول إضحاكها كانت تبتعد عني وهي تردد (الله يحفظك من كل شر)، هي ترى الشر واقفا عند الباب، يترصدنا، يحمل ملامحنا بيديه وينتظر الفرصة للإيقاع بنا. كل خميس تذهب أمي الى ضريح سيد غريب، توقد شمعة وتطلب من الله أن يعيدني إليها، لم تكن لديها أمنية الا ان تراني أمامها بعافيتي، لم تحدثني عن أيامها التي قضتها يوم بدأت الحرب، لكني استطيع ان أتخيل تلك الأيام، كئيبة ومظلمة.

كل الأمهات مثل أمي، يذهبن الخميس الى ضريح السيد حاملات معهن النذور والحلوى يوزعنه على الأطفال ، أتذكر يوم كنت طفلا أرافقها للمكان الذي تشعر فيه بالراحة، أقف مذهولا أمام القبر الأخضر الملطخ بالحناء كانت

أمي تجبرني ان اقبله وبعد تردد أنحني على القبر وتباغتني رائحة الحناء، انزوي في زاوية بعيدة أراقب النسوة وهن يضعن أقفالا في شباك الغرفة المعطرة بالبخور. لا يعرف احد من هو سيد غريب الا أنهم يقولون انه رجل صالح جاء من مدينة بعيدة بعد ثورة العشرين ونزل في سقيفة بناها له أهل المنطقة لكنه بعد أيام أصيب بالطاعون ومات. النساء تقول (انه يعطي باليد) في إشارة لكراماته.. ذات ليلة حلمت به جاءني بلباس يشبه الى حد بعيد لون قبره، اخضر، وبلحية بيضاء ووجه اسمر، لم يقل شيئا، وقف أمامي لحظات واختفى. وعندما أخبرت أمي بالحلم قالت (عسى ان يكون خيرا فرؤية السيد عافية وأمن) ومن يومها لم يزرني السيد ولم أزره الا ان أمي استمرت بزياراتها كل خميس.

الطريق الذي سلكته في عودتي ها آنذا اسلكه من جديد، ذات الطريق المتعب الذي يذكرني بما حدث مع المفرزة الأمريكية. لم تختلف أحاديث الناس في السيارة عن تلك الأحاديث التي سمعتها من قبل هم يتحدثون عن مآسيهم وأحلامهم ببلد خال من الموت والميليشيا وزوار الليل. كل امرئ هنا لديه حكاية مشحونة بالأحداث التي تصلح ان تكون فلما سينمائيا. هناك حكايات بدأت مع الغزو وأخرى تعود الى ما قبل الغزو بسنوات طويلة تلك الحكايات التي تخص المفقودين الذين جرفتهم أيدي السلطة، ربما أنا واحد من أولئك الذين بدأت معهم مثل تلك الحكايات ولا اعرف كيف ستنتهي. الوصية التي احملها حبلى بالمفاجآت، من سيدلني على ابن العريف قاسم المفقود منذ عشرات السنين وكم من الوقت احتاجه للبحث عنه.

الطريق باتجاه السماوة صار مختلفا عما قبل، لم تكن السيارات بالكثرة التي هي عليه الآن، يوم عودتي كان شبه فارغ، سألت السائق عنها فقال أنها تحمل زواراً عراقيين وإيرانيين حيث مدينة النجف.

بكاء متقطع اسمعه يأتيني من المقعد الاخير في السيارة، كان لامرأة تهذي مع نفسها وتندب حظها، صوتها يصلني بشكل متقطع، سمعت منها كلمتين علقتا في أذني، المخبر السري، لا اعرف ما الذي تعنيه بالمخبر السري الا ان رجلا كان يحاول تعديل كوفيته قال:

– لعن الله المخبرين السريين أخذوا كل أولادنا، ذيول الامريكان..

شجع كلام الرجل المرأة التي ما زالت تبكي فردت بصوت أعلى:

– آه لو اعرف المخبر السري الذي كتب تقريرا على ولدي وتجنّى عليه، والله لاقطعنّ لوزته..!

الان فهمت ما الذي تعني كلمة المخبر السري، ذلك الكائن الخفي الذي يشبه الى حد كبير أصحاب التقارير في زمن النظام السابق وبسببهم اقتيد الشباب الى السجون ومنها الى مقابر الموت الجماعي، اذن عاد الرفاق من جديد بثوب آخر اسمه (المخبر السري). ما أقذرها من مهنة تلك التي تعتاش على أمن الآخرين، وتتهمهم بما لم يقوموا به، حاولت ان ارسم صورة ذاك المخبر السري في مخيلتي، ذلك الكائن الذي يعمل في الخفاء، يترصد حركات الناس، يستمع لهم، وربما يجالسهم ويشجعهم على الكلام كي يثري تقريره بما يجعل آمريه ان يثنوا عليه وعلى جهده في جمع المعلومات التي تهدد أمن الأمريكان، المخبر السري صار يؤرق الناس، فهو يعيش بينهم دون أن يعرفونه

وقد شجعت الحكومة بعض الذين يسعون للحصول على أموال على حساب الناس ان يقدموا تقاريرهم التي تحظى بسرية تامة.. كثيرون أحيلوا الى المحاكم دون ذنب.

الصورة التي رسمتها في مخيلتي عن ذلك المخبر تطابقت وصورة الرفيق الأعور الذي كان يصول ويجول في زقاقنا ويفتخر في أن إحدى عينيه قد فقدها في واجب حزبي كرمته القيادة حينها بدرجة حزبية ومبلغ من المال.. ذلك الرفيق الحزبي لم يخبر أحدا ما الواجب الذي يفتخر به، عرفنا بعد ذلك انه كان يطارد احد الشباب الفارين من الحرب حيث تلقى ضربة قوية منه أفقده عينه اليسرى فيما فقد الشاب حياته واعدم مع مجموعة من الفارين من حرب إيران، هكذا كنا نسمي حروب النظام، حرب ايران، وحرب بوش، وحرب الكويت وحرب الاهوار، صارت حياتنا عبارة عن حزمة من الحروب.

المرأة التي كانت معنا في السيارة لم تتوقف عن الكلام الممزوج بالبكاء، فيما راح الركاب يطمئنونها ويسردون عليها حكاياتهم لربما تتوقف عن البكاء، الا أن الحكايات التي سردها الركاب جعلتها تستمر بالبكاء. أي زمن هذا الذي زاد من معاناة الناس، وأي أناس استلموا زمام السلطة بقصد رفع الظلم والحيف الا أنهم لم يستطيعوا أن يحققوا أحلام الوطن المكتوب على جبهته أن يكون مصدراً للهموم والمعاناة.

من بعيد، لاحت بيوتات السماوة عبر زجاج السيارة، النهار في منتصفه، قال السائق بصوت عال: حمدا لله على سلامتكم ها قد وصلنا السماوة.

(21)

تبدو السماوة مدينة هادئة، وقد غادرها الخوف الذي كان يجثم على بيوتاتها خلال ايام الغزو، ترجلت من السيارة ودخلت سوقاً مسقوفاً يمتد لمسافة قريبة على نهر الفرات فتحت على جانبيه محال للصفارين والعطارين والمصورين وباعة الملابس، فيما وضع بعض الشباب عربات صغيرة حملت مواداً في منتصف الشارع، العربات متلاصقة وتمتد مع امتداد السوق، السقف المعدني ربط بقطع حديدية شكلت زوايا متداخلة وفسحت النوافذ المقوسة المجال لدخول اشعة الشمس لتنير السوق، في الاعلى تتدلى مرواح كهربائية يبدو انها لم تشتغل منذ وقت طويل لكثرة الاتربة العالقة فيها، هذا السوق

يذكرني بكثير من الاسواق التي تشبهه في معماره، في العمارة هناك سوق العمارة الكبير بني على شاكلته وفي البصرة سوق المغايز يشبهه الى حد كبير لهذا وجدت فيه ألفة حيث ان حركة الناس فيه أزالت عني بعض الخوف الذي كان ينتابني، في آخرة السوق دخلت مطعماً للاكلات السريعة، جلست في مكان يطل على الشارع، سيارات أجرة تروح وتجيء دون اي نظام، لا وجود لشرطي مرور أو إشارة مرورية ضوئية، بالضبط مثلما هو حال مدينتي، لم يعد افراد الشرطة بعد لمراكزهم، فالشوارع تخلو منهم، ومراكز الشرطة استولى عليها بعض الناس واتخذوها منازل وكذا الحال للشعب والفرق الحزبية تلك التي لم يجروء أحد الاقتراب منها قبل الغزو. كانت تلك المقار تؤرق الناس، فهي تثير فيهم الخوف والرعب، دخلها كثيرون اثر تقارير حزبية ولم يخرج منها الا القليل واولئك لم ينبسوا ببنت شفة فيما جرى لهم هناك الا بعد سقوط النظام.

جاءني نادل المطعم وقدم أمامي قنينة ماء ومسح بقايا طعام كانت فوق الطاولة، قال مرحبا بي:

- أهلا وسهلا، أراك قد قطعت مسافة طويلة..

قلت له:

- جئت من البصرة..

قال باسماً:

- على الرحب والسعة، أنت ضيفنا..!

ترحيب النادل بي بعث في داخلي ارتياحاً، قلت في نفسي ما زال هناك ممن لم يشذ عن القاعدة، بعد ان طلبت منه الاكل فتحت القنية وشربت منها مقدار قدح، تابعت النادل وهو يتنقل من طاولة الى أخرى راسماً ذات الابتسامة. اخرجت من جيبي عنوان منزل العريف قاسم، حدقت في الورقة وانا اعيد رسم الحروف بناظري، واستعيد صورته من بئر ذاكرتي واحاول الامساك ببعض الكلمات التي كان يرددها لعلي استطيع فك الطلسم الذي وضعني به.

يوم جاء العريف قاسم لسريتنا لم يكن بصورته اليوم ، كان منعزلا ومن الصعوبة ان تمد جسرا للحديث معه، لم يكن قاسيا مثل كل العرفاء في الجيش، كان منعزلا فقط، لا يحدث أحدا، ولا يجتمع مع رفاقه ممن هم في نفس رتبته العسكرية. ورغم اعتزاله وانطوائه الا انك تشعر للوهلة الاولى التي تلتقي به بطيبته وفرادته فهو يمتلك قدرة كبيرة على التأثير بمن حوله حتى بصمته وربما هذا الامر قد جعل الاخرين ان يدبروا له مكائد كثيرة، لم يقل لي ذلك الا ان واقع الحال يشير اليه لهذا فالعريف قاسم بعد خروجه من ازمته صار لا يلتقي الا بمن هم يحملون رتبة أدنى، يستمع لهم اكثر مما يتحدث، واحيانا نرغمه على الكلام واذا تكلم ببضع كلمات فهذا نصر لنا، كل مفردة ينطق بها كانت تخفي خلفها كثيرا من المعاني، استطعت ان اعرف كل ذلك بعدما اصبحت قريبا منه، وكان يناديني بكلمة (ابني) فهو يرى فيّ ابنه الذي غادره مبكرا. هكذا صرت افتح له قلبي، فقد حدثته عن كل تفاصيل حياتي واحلامي في ان امثل البلد في الاولمبياد وان احقق رقما قياسياً، كان يشجعني ويردد " ستحقق رقمك القياسي!"، كنت اضحك وانا اسمع منه هذا، كيف احقق حلمي ولم

يقبل المسؤولون طلبي في ان التحق بنادي الجيش الرياضي، المسؤولون يريدون حطباً للحرب وليس رياضياً يرفع علم بلادهم عالياً، كل شيء في زمن الحرب يتوقف الا الموت.

نعم ايها العريف الطيب لقد حققت حلمي، حققت رقماً قياسياً في اجتياز الصحراء بكل ما فيها من مخاطر، نجوت بقدرة قادر من الذئاب والافاعي والحرب، الان عرفت كلماتك وانت تردد: ستحقق رقمك القياسي، لكن ما يشغلني هو وضعك أنت، هل نجوت من الموت؟.

اعادني صوت النادل وهو يقول: "تفضل يا سيدي" ووضع صحن الطعام امامي بعد ان ابعد الورقة. طلبت منه ان يدلني على العنوان المكتوب فيها، قال لي معتذرا:

- أنا لا اقرأ..!

قلت:

- خذها لمن يعرف القراءة..

اخذ الورقة وهو يحدق فيها، ذهب حيث الرجل السمين الذي جلس امام منضدة خشبية، رأيته وهو يسلمه الورقة ويتحدث معه، تلك اللحظة هي مفتاح المرور لمهمتي التي لا اعرف كيف ستنتهي، اعاد الرجل السمين الورقة الى النادل وهو يهز رأسه، عاد النادل مبتسماً وقال:

- المكان ليس بعيداً من هنا، في نهاية الشارع ثمة مبنى هدمت بعض اركانه، خلفه بالضبط نيسم ترابي يقودك الى المكان، هناك إسأل الناس فهم سيدلونك..

بعد وصفه هذا فقدت شهيتي للطعام، لاستعجل الوصول الى منزل العريف قاسم، أكلت قليلا من الطعام وخرجت من المطعم حيث المكان الذي وصفه النادل، عيناي تحدقان في نهاية الشارع، ثمة مبنى رفعت فوقه بيارق سوداء مثل تلك البيارق الموجودة في كل مكان زرته، اقتربت من المبنى وبان الخراب في جزئه الجنوبي، يبدو أن صاروخاً قد انقض عليه وبقي شاهدا على حرب انتهت، عدد من الاطفال يلعبون في فضاء الخراب، بين الطابوق المتناثر، في الفسحة التي تؤدي الى عدة ابواب خلعت من مكانها ووضعت بدلها أبواب جينكو يمتد حبل غسيل نشرت عليه ملابس من ألوان مختلفة، تلك المباني الحكومية صارت بين ليلة وضحاها سكناً للناس الذين ليس لديهم مأوى.

لم يكن المكان الذي وصفه لي نادل المطعم مكتظا بالناس، ثمة محل وحيد خلف البناية الخربة التي اجتزتها، محل وزعت في مدخله عدد من المدافئ فيما لمحت رجل خمسيني منشغلا بتصليح واحدة منها، دنوت من المحل دون ان ينتبه بوجودي، سلّمت عليه وانا احدّق بقطع المدافئ التي فككها وعلقها في جدار المحل، رفع الرجل رأسه بعد تكراري التحية وسحب سيجارة احترق نصفها من بين شفتيه اليابستين وهز رأسه ببطء، وانزلقت نظارته الطبية الى مؤخرة أنفه وردها باصبعه الملطخ بالسخام، طلبت منه ان يدلّني على منزل العريف قاسم، نهض من الصفيحة التي كان يجلس عليها ونكت مؤخرته باطراف اصابعه مقتربا مني، كررت عليه الاسم ظنا مني انه لم يسمعه، لم يقل شيئا، فقط اشار بيده المرتعشة حيث مسجد صغير ضاع بين مبنيين يعلوانه، شكرته واتجهت صوب المسجد فيما بقي الرجل الخمسيني يراقب خطوي.

غريب أمر الناس، صاروا يرتابون من كل شخص غريب، لم نكن من قبل هكذا، كنا نرحب بالغريب ونسقيه من مائنا ونطعمه من طعامنا ونوصله للمكان الذي ينوي الذهاب له. كيف تغيرت الطباع بهذه السرعة، وهل للغزو علاقة بكل ما يجري..؟

تذكرت الحاج ابراهيم، شيخ وجدته في المقهى ذات صيف، كان متعباً حزيناً، يجلس في زاوية المقهى، لا يتحدث مع أحد ولا يعير لأحد اهتماماً، قادني فضولي لأن اسأله ان كان يحتاج شيئاً، وبعد حديث طويل عرفت انه جاء لبلدتنا زائراً لأقارب له لكنه لم يجدهم وعلم انهم ارتحلوا الى بلدة أخرى، هكذا انقطعت به السبل، كان ذلك بعد انتفاضة عام 1991 حيث ارتحل كثيرون وغاب آخرون دون ان يعلم أحد سبب غيابهم، بقي الحاج ابراهيم معي يومين، استضفته في بيتي، واوصلته الى الكراج ودفعت اجرته، هكذا كنا نتصرف مع الغريب. لا اعرف ما الذي حل بالبلد وبالناس، كل شيء تغير، الامكنة والناس ايضاً، الساحات الفارغة امتلأت بالبيوت المبعثرة، بيوت صفيح وقصب، الارض خرجت من يد الدولة وصار كل واحد يخطط كيفما يشاء، بيوت متلاصقة لا شوارع تؤدي لها، في السابق كان على المرء ان يحصل على موافقات البلدية لبناء داره، ايام عديدة يقضيها بالمراجعات من أجل الحصول على اجازة بناء، هكذا كان الامر أما اليوم فلا حاجة لاجازة بناء او حتى شراء أرض، فالارض موجودة وهي كما يقول عنها الناس أرض الله ولا دخل للحكومة فيها!

اجتزت المسجد الصغير، ومشيت عبر طريق ترابي قادني لمجموعة من البيوت المتداخلة، هنا علي أن أسأل عن منزل العريف قاسم، لا بد ان يكون ضمن تلك البيوت، قررت ان اطرق باب احدهم وأسأل، ليس من المعقول ان أدور في مكاني بينما الوقت يمر سريعاً، خطوت باتجاه اقرب باب أمامي، وقفت امامه برهة وتذكرت ورقة العنوان، اخرجتها من جيبي وقرأتها من جديد، لا ادري لم فاتني ان احفظ الوصف جيداً، ذكر العريف قاسم لون باب بيته الحديدي، أزرق مؤطر باللون الاسود وفي وسطه ثمة نتوء شكل رسماً لصقر أفرد جناحية وقد صبغ باللون الذهبي، هذا الوصف يكفي لأن أدور على كل ابواب المنطقة. تركت فكرة طرق الباب والسؤال ومضيت مسرعاً أحدق بالابواب، في كل شارع هناك أكثر من خمس بيوت على الجانبين، أنهيت الشارع الاول ودخلت للثاني، ثمة أبواب مصبوغة باللون الاسود لكن لا وجود للصقر الذهبي فيها. ساعة مضت وأنا أتحول من شارع لآخر، وفي لحظة تعب، كان الباب أمامي، بالضبط كما وصفه العريف قاسم، الا ان الصقر الذهبي تحول الى كومة من الغبار، كان الباب مفتوحاً الى المنتصف، استطعت ان ارى الداخل بوضوح، اقتربت رويدا رويداً وانا لم اصدق نفسي، ها آنذا أصل الى المبتغى، وأقف عند عتبة باب العريف قاسم تلك العتبة التي دفعت من أجل الوقوف عليها كثيرا من الجهد، دفعت ضلفة الباب، اصدرت صريراً مزعجاً، اجتزت الحشائش التي غطت الممر الاسمنتي، ورحت ابحث عن المفتاح الذي ذكره العريف لي يوم غادرت المفرزة، لم يكن هناك أي مفتاح، اعدت البحث مرارا ولم اجده، عدت حيث الباب الداخلي، جلست عند عتبته افكر

في طريقة للدخول، اللحظات تمر، وانا ملتصق بالباب، أغمضت عيني وتصورت العريف قاسم وهو يدور في حديقة المنزل يجز الحشائش التي استطاللت، بينما جلست زوجته امام الباب تراقبه، الابن يعود من مدرسته، وقاسم لم ينه عمله. لا اعرف كم من الوقت مضى وانا غاف على العتبة، الا أن صوت العريف قاسم فززني، هل كان حلماً..؟ تساءلت مع نفسي قبل أن افتح عينيّ فما زال هناك ما يخلط الامر عليّ، حلم أم حقيقة هذا الصوت الذي سمعته، كل شيء اختلط عليّ، ما عدت أفرّق بين ما أحلم به او أعيشه، هكذا هي حياتي صارت حلماً سرمدياً، أحلام تروح وأخرى تجيْ لأناس غابوا وأمكنة ما زالت تبحث عن خلاص، لم يكن الغزو خلاصا من عهد قهري بل كان عهدا جديدا لقهر جديد.

فتحت عيني وأنا أسمع العريف قاسم يقول:

- ألم تقل لي من قبل "سأزورك في بيتك واحتفي بك ولكن يا سيدي".. ها أنتذا في بيتي أيها الجندي البطل.

رفعت رأسي الى أعلى حيث مصدر الصوت، وبانت أمامي ملامح العريف قاسم، بشعره الاشيب المجعّد، وأنفه ذي الفتحتين الكبيرتين، وشاربه المصفر فرط التدخين. ارتبكت كثيرا وأنا أحاول اطلاق صوتي من حنجرتي التي حبسته، حاولت جاهدا ان اقول كلمة لكني لم استطع، جلس العريف قاسم جنبي ومد يده نحوي قائلاً:

- كنت انتظرك.

احتضنته بقوة، بكيت، بكيت كثيراً، ذرفت دموعاً بللت كتفه، كل هذا وانا لم أقل كلمة، كنت فرحاً، فرحاً برؤيته من جديد. همس في أذني قائلاً:

- كفكف دموعك يا بني، أنت الآن في بيتك.

نظرت في عينيه، وتحسست يديه لأتأكد ان الجالس قربي ليس شبحاً واتيقن اني لم اكن أحلم، استطعت أخيراً ان أقول كلمة:

- هل أنت حقيقة..؟

رسم العريف قاسم ذات الابتسامة الغريبة التي كنت اراها على وجهه وقال:

- حقيقة مُرّة !

قلت:

- جئت لأحقق أمنيتك..
- اعرف أنك ستأتي مثلما كنت اعرف أنك ستنجو من الصحراء، انتظرتك أياماً ولياليا..
- الظروف وحدها التي أخّرتني..
- حمدا لله على سلامتك.
- وسلامتك أنت يا سيدي.

قادني العريف قاسم الى داخل منزله، صالة نصف مضاءة، وصورتان معلقتان على الجدار، لامرأة في الثلاثين بحجاب أخضر، وفتى بقميص أبيض وشعر غطى أذنيه. الصورتان بحجم واحد، اطرتا باطار ذهبي من تلك التي تؤطر فيها الآيات القرآنية، جلست على اريكة خشبية وضعت أمامها منضدة معدنية صغيرة ما زال قدح الشاي يتوسطها.

جلس العريف قاسم على كرسي وضع قبالة الاريكة، قال مرحبا بي:

- أنرت بيتك يا بطل.

أجبته وأنا أحدق في الصورتين اللتين أمامي:

- البطولة تكمن فيك يا سيدي.

قال:

- خسرنا الحرب!

- وربحنا أنفسنا.

هزّ رأسه وهو يتناول قدح الشاي قائلاً:

- لا ربح في الحروب، هذا ما تعلمته منها. السنوات تمضي والاعمار تختصر والاحبة يتضاءلون.

- لكنها الحرب الأخيرة يا سيدي وقد انتهت.

- لم تنته بعد ستفرّخ حروباً صغيرة بين الإخوة وسيعمل الغزاة على قتل القيم وبث الفرقة.

شعرت بالفزع وانا استمع لحديث العريف قاسم، هذا المحارب القديم لم يقل كلماته عبثاً فهو يعرف جيدا ما يحدث وما سيحدث، كثير من الجمهوريات مرت عليه منذ الجمهورية الاولى عام 1958 ، صار عارفاً بأحوال البلد الذي لم يستقر يوماً، نهض من مكانه وهو يقول:

- سأعد لك طعاماً..

- أكلت في المطعم.

إلتفت نحوي وقال:

- اذن سأعد لك قدحاً من الشاي.

دخل المطبخ وبقيت اتطلع للصورتين اللتين أمامي، لم أر صورة للعريف قاسم لكني لمحت رتبته العسكرية وقد شدت بخيط وعلقت تحت الصورتين، نهضت من مكاني واتجهت صوبها، وقفت متأملاً النجمة الصغيرة التي تتوسط القطعة الخضراء ذات الرأس المدبب، حاولت ان اكتشف سر تعليقها حيث الصورتين، أتراه يشير الى رحيلها الابدي هي الأخرى؟.

عاد العريف قاسم من المطبخ وهو يحمل قدح الشاي، اقترب مني واشار الى ما انظر اليه وقال:

- كل ما بقي لي في هذه الحياة. اذا كان هناك ربح كما تقول فقد ربحت ذكراهم، زوجتي وولدي ورتبتي!

أجبته وأنا آخذ قدح الشاي منه:

- وأنا ربحتك أنت، أباً وصديقاً.

تركت كلماتي اثراً في نفس العريف قاسم رأيته يتجلى في ابتسامته المختلفة، دعاني للجلوس والحديث عن رحلتي الشاقة الا اني طلبت منه ان يحدثني عن رحلته هو ومصير زملائي. قال:

- لم يكن أمامنا الا الاستسلام، اقنعنا الملازم لقمان أن نرفع راية بيضاء فوق الخيمة وان نجلس منتظرين الامريكان، اسبوع بعد ذهابك حلقت طائرتا هليوكوبتر، نزلت واحدة منها بينما بقيت الاخرى تحلق فوقنا، نزل بعض الجنود بعدتهم واسلحتهم التي صوبوها نحونا، طلبوا منا ان نتمدد على الارض رافعين ايدينا على

الـرؤوس، فعلنـا مـا طلبـوا منـا، وراح جنـديان يتفحصـاننا وعنـدما تأكـدوا مـن أننـا لم نحمـل أسـلحة طلبـوا منـا الصـعود الى الطـائرة في وقت نزلت الطائرة الاخرى على مكان قريب، وهكذا صرنا أسرى بيد الامريكان حتى اطلاق سراحنا بعد أيام.

بايجاز روى العريف قاسم حكايته، لم يذكر التفاصيل، ولم يقل ما جرى، انهى حكايته بسرعة وكأنه لا يرغب في استعادة تلك الايام التي تجرع فيها طعم الخسارة. صمت طويلا ودخّن سيجارتين وأردف قائلاً:

- كل مساء كنت أدعو لك ان تصل سالماً، تضرعت كثيراً أن يجمعني الله بك، كنت واثقاً ان الحرب ستودي بنا الى الجحيم لهذا اقنعت الملازم لقمان ان تذهب، أنبني ضميري كثيراً بعدما سلمنا أنفسنا دون أن نطلق رصاصة واحدة، قلت مع نفسي ماذا فعلت بالولد، جعلته طعماً لذئاب الصحراء.. ماذا لو بقي معنا ونجا، كنت ارفع يدي للسماء وأقول: أيها الرب الرحيم دع عينك تحرسه وابعد عنه وحوش البراري.

بكى العريف قاسم، ربما هو البكاء الوحيد في حياته، ها هو ذا المحارب القديم يستسلم للبكاء، كان بكاؤه مُرّاً ، كأنه يبكي كل ما فات من سني عمره، يبكينا جميعاً، يبكي الحروب التي سرقت منه اصدقاءه، وتركت له بقايا ذاكرة. يبكي الأيام التي مضت هباءاً وهو يعيش وحيداً. لم أره ضعيفاً مذ عرفته فقد كان صلباً في اصعب المواقف، يقف بين الجنود شامخاً، قوياً، صابراً. كنا نظنه إنساناً آلياً، بلا دموع. لا توجد فسحة في حياته للبكاء او الضحك. بكى

المحارب القديم طويلاً، خلت أنه لن يتوقف، كأنه قد جمع كل بكاء السنوات ليلقيه أمامي مرة واحدة. نهضت واتجهت صوب المطبخ، جلبت له قدح ماء وضعته أمامه، لم يعره اهتماماً، لكنه أوقف نزيف بكائه، قلت له:

- الماء يبرّد الروح ويبعد الألم، اشربه يا سيدي.

مدّ يده وأبعد القدح الى الزاوية القريبة مني وقال:

- اذا ما اتسع الألم وضعفت الإرادة لا يبرد الروح الا البكاء يأتيك عنوة ليفرض ارادته عليك.
- لكنك قوي الارادة..
- القوة لا تدوم لأحد، نحن بشر، نوهم أنفسنا والآخرين أننا اقوياء لكن أرواحنا منخورة. لا أحد يعترف بضعفه!

نعم، لا أحد يعترف بضعفه، كررتها مع نفسي، وأنا أحدّق فيه مستذكراً اللحظة الأولى التي جمعتني بالعريف قاسم، قدمت له أوراق نقلي بعد انتهاء دورة التدريب العسكري للمشاة ومن ثم وزعنا على صنوف الجيش، كان صنفي الهندسة العسكرية. لم يرق لي الصنف ظناّ مني أن ذلك يتطلب مني معرفة بالخوارزميات والنظريات التي تحتاج الى براهين وعشرات العمليات الحسابية الا ان العريف قاسم أخبرني أن الهندسة العسكرية تختلف اختلافا كبيرا عن الهندسة التي تعلمناها في المدارس، هي مجرد فعاليات تستخدم في اوقات السلم والحرب، منها بناء المعسكرات وزرع الالغام ونصب المصائد التي يطلق عليها بمصائد المغفلين، هي تختلف فعلا كما قال العريف قاسم لكن

الفرق الوحيد الذي اشار اليه أن الهندسة العسكرية لا تقبل الخطأ، فالخطأ يعني الموت المحقق!

بعد ان نفض العريف قاسم كل همومه، عاد لطبيعته، تناول قدح الماء وارتشفه دفعة واحدة، نهض حيث المطبخ حاملا القدح معه، تبعته يدفعني الفضول في أن أسأله عن ولده المفقود منذ سنوات، حاولت أن أعيد صياغة السؤال في ذهني عدة مرات كي لا أثير في نفسه المزيد من الألم، قلت له:

- ماذا عن ولدك المفقود، هل وجدته في السجون السرية..؟

أجابني وهو يضع صحناً التصقت به بقايا طعام تحت صنبور الماء:

- وجدت اسمه في قائمة الامن العام مع عدد كبير من الاسماء المحالة الى محكمة الثورة.

أعرف أن من يحال الى محكمة الثورة لا يمكن ان يضمن حياته ففيها يوزع الموت بالمجان، تلك المحكمة التي غيبت كثيرين فتاريخ المحاكم معروف للناس منذ ان تأسست أول محكمة استئناف ببغداد خلال الاحتلال البريطاني الاول مرورا بمحاكم العهد الملكي ومن ثم محكمة المهداوي(***) في عهد عبد الكريم قاسم ومحكمة الثورة بعد عام **1968**. كل تلك المحاكم أسست لمحاكمة من يتهم بمعارضته للنظام، هكذا اصبح كل نظام يأكل الآخر، بينما بقي الناس يدفعون ثمن ذلك. قد تختلف العهود السابقة عن عهدنا انها انتهت دون ان تنتهي الدولة بمؤسستها العسكرية والامنية الا ان هذا العهد وهو عهد الغزو اكتسح كل شيء، انهى كل شيء، انهى الدولة بكل مؤسساتها، زماننا صار ملتصقا بالافراد، عهد الملك، عهد عبد الكريم، عهد عبد السلام، عهد

البكر، عهد صدام، عهد بريمر.. هكذا نسمي الزمان حيث تذوب الدولة بالفرد وهو أمر شجّع على الظلم والاستفراد بالسلطة.

خمسة أيام لم تكن كافية، تلك التي مكثت فيها في منزل العريف قاسم، أيام قليلة الا أنها كانت بالنسبة لي فسحة رائعة في عالم المحارب القديم، عالم مليء بالاحداث تصلح ان تكون فلماً سينمائياً، هذا الرجل الهادئ يخفي بداخله مرجلا ما زال يفور، لم يقل لي أنه سيء الحظ لكني عرفت ذلك من خلال ما لاقاه في حياته من خطوب، حروب متداخله عاشها لم تنته بعد، بعد اعتقال ولده تركه الاصدقاء، لم يسأل عنه أحد، صار الجميع يتهربون منه، مثله مثل كثيرين ممن اعتقل ابناؤهم حين كان الاعتقال بتهمة سياسية جريمة كبرى قد تشمل كل المحيطين بالمعتقل.

قبل ان اغادر قلت له:

- ليتك تجيء معي، سأهتم بك.

قال وهو يحدق بالصورتين المعلقتين في الحائط:

- أنفاس أحبتي هنا تحتاج لمن يرعاها.

قلت:

- سيكونون معك حيثما ذهبت..

- الأرواح لا تغادر الأمكنة التي تحب!

لم استطع اقناعه الا أنه طلب مني أن أزوره بين فترة وأخرى. قبل أن أفتح الباب قدم لي مظروفاً قائلا:

- احتفظ بهذا..

نظرت له باندهاش وأردف قائلا:

- **شيء بسيط اقدمه لك ربما يذكرك بي دائماً.**
- **أنت في ذاكرتي دائما يا سيدي.**

قال وهو يضع المظروف في جيبي:

- **أعرف هذا..**

غادرت المنزل دون أن أفتح المظروف وأنا أردد مع نفسي "يبدو ان مفاجآت العريف قاسم لم تنته.".

(22)

تحسست مظروف العريف قاسم الذي دسه في جيبي، ومرت أصابعي بتميمة جميلة، شعرت بنسائم الذكريات وهي تنعش نفسي، المرأة التي أهدتني تميمتها الغالية رائعة بكل شيء، تمنيت أن أراها ثانية تلك التي مرت كحلم جميل، أي طريق يقودني اليها والصحراء شاسعة، ليس سوى القدر الذي يجمعني بها.

مرأب السيارات ليس بعيداً، ذهبت راجلاً متجاوزاً البيوت العشوائية والساحات الترابيه حيث السوق الكبير الذي بدأ الباعة فتح أبواب محالهم وأخرج بعضهم بضاعته على الرصيف، صوت قارئ قرآن ينبعث من أحدى المحال، صوت قريب من الله يضفي على المكان انتعاشاً، رددت مع القارئ

بعض الآيات التي احفظها، في آخرة السوق بدا الشارع واضحاً، لوحة تشكيلية جميلة أراها أمامي، الداخل وهو قوس السوق بألوانه الباهته والخارج بأشعة الشمس القوية، صوت مولد الكهرباء في الرصيف الخارجي يصم الآذان، الحكومة لا تزود الكهرباء للناس بشكل مستمر، ربما ساعة واحدة فقط أو أقل، قبل الغزو كانت محطات الكهرباء تعمل بنصف طاقتها سرت شائعة بين الناس تقول أن الحكومة تقوم بتسريب الكهرباء في الانهر، لا أعرف من أطلق هذه الشائعة إلا أنها سرت في جميع أنحاء البلد، وبعد الغزو ظهرت الحقيقة، فالكهرباء لم تستقر وزاد زمن الانقطاع والمحطات بقيت على حالها واعتمد الناس على مولدات أهلية مقابل مبالغ مالية.

دخان مولد الكهرباء الأهلي يمتد في الفضاء، قرأت لافتة في مدخل المكان المؤدي للكتلة الحديدية المهتزة، ساعات التشغيل من السادسة صباحا حتى السادسة مساءاً، هذا يعني أن المدينة في الليل تغفو في الظلام، وهو ظلام زحف الى كل زوايا حياتنا، صرنا نعيش في دوامة لا نعرف منتهاها، قوات الاحتلال تنتشر في شوارعنا، في الشارع القريب ثمة مفرزة منهم، جنديان يابانيان يقفان قرب حاجز يقطع الطريق، هكذا توزعت قوات التحالف على كل المحافظات وهي قوات عسكرية متكونة من عدة فرق من دول العالم المختلفة ترأسها أمريكا وبريطانيا،، البريطانيون في البصرة واليابانيون في السماوة والامريكان في بغداد، غابت الفيالق العسكرية العراقية في زمن قياسي وحلّت المؤسسة العسكرية والأمنية التي كانت تخيف الناس.

اكتظ مرأب السيارات بالمسافرين، مشهد لم أره من قبل وكأن الناس اتفقوا على الرحيل، عرفت بعد ذلك أنه موسم الزيارة، فالناس في الجنوب والفرات الأوسط يتوجهون في مثل هذه الأيام الى النجف وكربلاء، أزدادت أعداد الناس بعد الغزو، مثلما أزداد التوجه الطائفي في أحاديث المسؤولين الجدد، خطر جديد يداهم البلد، مثل هكذا أحاديث تأخذنا حيث الهاوية، استطاع الامريكان أن ينجحوا في هذا، تذكرت معلمنا في الابتدائية وهو يتحدث عن الاحتلال البريطاني الاول عام 1914 وكيف استطاع ان يسيطر على البلاد من خلال سياسة (فرّق تسد)!.. سياسة خبيثة، ان اردت ان تكون سيداً على قوم فرّق بينهم، وهذا ما حصل، قسّموا المناطق على أساس طائفي، في كل يوم هناك قتلى في هذه المنطقة او تلك، برزت ميليشا في الطرفين بأسماء لها أثر سحري بين الناس.

قبل أن أضع قدمي في باب الحافلة، سمعت من يناديني بإسمي، كان صوتاً مالوفاً، من يعرف إسمي وسط هذه الناس، تكرر الصوت، إلتفت واذا بي أراها، بوجهها الحنطي، وابتسامتها التي ما فارقتني، نعم، هي ذي جميلة، الشابة التي أنقذتني وآسرتني، بقوامها الممشوق، لم أصدق نفسي، ايعقل أن تكون هي..؟ وقفت أمامها والدهشة لم تفارقني، قلت:

- جميلة..؟!

قالت وبريق عينيها يدهشني:

- لم تنس إسمي..

قلت:

- كيف أنساك، أنت في ذاكرتي..

قالت:

- اليوم عدت من دفن والدي، أصيب بلغم.

يا الله، شعرت بالذنب وأنا أسمع منها هذا، الرجل الذي آواني وانقذني يموت بواحد من تلك الالغام التي نشرناها في الصحراء، صحيح أنه ليس من الألغام التي زرعناها لكنه ذنبي وذنب الجنود الذين قاموا بتلويث الصحراء بآلات الموت، تذكرت كلماته وهو يصف الصحراء بأنها المكان الآمن، كان يثق بها، لدرجة انه كان يضع قدمه دون أن يفكر ان الموت بانتظاره، حزنت كثيراً قدر فرحي برؤية جميلة، أخبرتني انها بقيت مع جثة والدها التي قطعها اللغم يومين قبل ان تنقلها هليوكوبتر امريكية كانت في مهمة في المكان، نقلت الجثة الى الطب العدلي ومن ثم ساعدها بعض الناس لدفنها. حدّثتني بكل هذا بعد ان اقنعتها أن تذهب معي، ابنة الصحراء فقدت صحراءها وسماءها الواسعة، بعد فقد والدها، حدّثتني عن حمارها ومبتور، قالت ان الحمار نفق مع والدها بينما بقي مبتور في الصحراء. قالت:

- يوم نقلت بالطائرة كان مبتور يقف بالاسفل، رأيته يرفع رأسه للاعلى، لمحت عينيه الدامعتين، كان يودعني ويودع صاحبه، بقي في مكانه واجفاً.

ما سمعته منها آلمني حيث شعرت من قبل ما يفعله الفقدان بالنفس، هي فقدت كل شيء في لمح البصر وأنا فقدت بلداً لا اعرف هل سيعود آمناً من جديد!

قلت لها:

- القدر يجمعنا ثانية، تعالي معي.

قالت بعد تردد:

- سأعود لصحرائي..

قلت:

- لم تعد الصحراء لك، رمالها استلبت..

نظرت لي وقالت:

- أما زالت معك..؟

قلت:

- مَنْ..؟

قالت:

- التميمة..

مددت يدي الى جيبي واخرجت قطعة القماش وقربتها من وجهها وراحت تشم رائحتها قائلة:

- إشتقت لرائحتها، رائحة امي..

- هي لك، خذيها..

قالت وهي تضغط على أصابعي لتخفيها:

- ما دمت معك لن احتاجها..

الآن شعرت بذنب آخر، ماذا لو كانت التميمة مع الشيخ الطيب لما حصل ما حصل، حدّقت بي ثانية وكأنها قرأت أفكاري. قالت:

- ما حصل كان قدراً، ألا تؤمن بالقدر..؟!

هززت رأسي موافقاً، وشاكستني فكرة قد تبدو سخيفة، ماذا لو صنعنا تميمة كبيرة ووضعناها على صدر بلدي هل كان سيحصل لنا كل هذا..؟

هوامش:

(*) ساعة سورين: و هو برج صغير مشيد من الآجر المفخور تقع في قمته ساعة دائرية سوداء اللون , تقع في سوق المغايز بمحافظة البصرة (الصيادلة او الهنود سابقاً)عند الطرف الشمالي بالقرب من جسر الصيادلة المبني من الطابوق هو الآخر على نهر العشار و الذي تمت ازالته , بنيت ساعة سورين من قبل شركة سورين البريطانية عام 1950م كهدية امتنان لمدينة النخيل وهذه الشركة كانت تحتكر تجارة تمور البصرة و تصدرها إلى أغلب دول العالم و كان مسؤول هذه الشركة آنذاك السيد عيسى عيسائي , تمت إزالة هذه الساعة بفترة متصرفية محمد الحياني (التي تنسب اليه الحيانية) و الذي قتل مع رئيس الجمهورية عبدالسلام عارف بحادثة سقوط الهليكوبتر التي كانت تقلهم في البصرة.

(**): الحكاية بتصرف مذكورة في كتاب (من اعماق السجون نقرة السلمان ..قيود تحطمت) للكاتب عبد القادر العيداني.

(***): معسكر بوكا بالإنكليزية (Camp Bucca) هو معسكر اعتقال تحتفظ به الولايات المتحدة الأمريكية في محيط مدينة أم قصر في العراق. وكان يسمى في البداية منشأة كامب فريدي واستخدامها من قبل القوات البريطانية لاحتجاز سجناء الحرب العراقيين وبعد أن استولى عليها الجيش الأميركي في

نيسان / أبريل 2003، أعيدت تسميته لذكرى رونالد بوكا، وهو جندي في اللواء 800 للشرطة العسكرية، حيث كان من الذين لقوا حتفهم في هجمات 11 أيلول / سبتمبر 2001. بعد فضيحة سجن أبو غريب، تم نقل العديد من المعتقلين من سجن أبو غريب إلى معسكر بوكا. مما أثر بشكل كبير في سلسلة القيادة في معسكر بوكا وأدى إلى تعديلات جوهرية على سياسة المعتقل ،حيث سعى الجيش الأمريكي بعد فضيحة سجن أبو غريب، إلى ان يجعل معتقل بوكا، معتقلا نموذجيا، رغم حدوث العديد من عمليات انتهاك حقوق السجناء والمعتقلين. (عن ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

(****) محكمة المهداوي واسمها الرسمي آنذاك محكمة الشعب وهي محكمة أسست عام 1958م، بأمر من عبد الكريم قاسم رئيس وزراء العراق بموجب المرسوم الجمهوري المرقم (18) والمؤرخ في (1958/7/20) المعدل في المرسوم الجمهوري المرقم (164) والمؤرخ في (1958/8/15) بتعيين العقيد فاضل عباس المهداوي رئيساً للمحكمة العسكرية العليا الخاصة وكانت تعقد جلساتها في قاعة الشعب في منطقة باب المعظم قرب مبنى وزارة الدفاع في بغداد. وكان يتم نقل وقائع جلساتها على الهواء مباشرةً في المذياع والتلفاز . (عن ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)

كتب للمؤلف:

1- لا احد قبل الأوان شعر مطبعة جامعة البصرة 1998

2- مخابئ شعر البصرة 2000

3- الطريق الى الملح رواية دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد 2001

4- كل جسدي مشاعر شعر إصدارات اتحاد الادباء والكتاب بالبصرة 2016

5- عنبر سعيد رواية (تحت الطبع)

6- مسرحيات (مسرح تحت الطبع)